قصة أقدم ساحات بغداد

تأريخ أرقام السيارات الخصوصي في بغداد (أيام زمان)

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

العدد (1815) السنة السابعة

الاثنين (7) حزيران 2010

2

أول من أدخل الكهرباء إلى الموصل

أول من أدخل الكهرباء إلى الموصل

مصطفى الصابونجي والوطنية الاقتصادية

د. ابراهيم خليل العلاف

اقتبس مصطلح الوطنية الاقتصادية من الباحث روجر اوين، استاذ التاريخ العربي الحديث في كلية سانت انطواني باكسفورد، فلقد استخدم هذا المصطلح عند حديثه عن الاقتصادي الوطني المصري المعروف طلعت حرب، مؤسس بنك مصر، والمشاريع الاقتصادية الرائدة، والذي عد نضاله الاقتصادي مكملا للنضال السياسي الذي قاده سعد زغلول ورفاقه.

ومصطفى الصابونجي قدم للموصل ما قدمه طلعت حرب للقاهرة وعبد الحميد شومان للاردن وفلسطين.. والوطنيون الاقتصاديون هؤلاء اعتقدوا مجموعة معينة من الافكار عن الاقتصاد الوطني، وقد اتاحت هذه الافكار وتطبيقاتها في مجال استثمار رؤوس الاموال في مشاريع نافعة للبلد، قوة دافعة للكفاح الوطني، ضد المحتلين الانكليز واعوانهم، والسعي من اجل الاستقلال.

ولد مصطفى الصابونجي عام ١٨٨٨ في الموصل، هو ابن محمد باشا الصابونجي ١٨٤٤-١٩١٦ من عشيرة الخوالد ومن وجهاء الموصل الذين برزوا في ميدان التجارة والادارة والسياسة ، ومن ذلك دوره في تأسيس اول غرفة تجارية في العراق، هي غرفة تجارة الموصل ١٨٨٤ كما ارتبط بالحركة العربية القومية التي ناولت العثمانيين سرا، كما كان عضوا في مجلس ادارة ولاية الموصل بين ١٨٩٥ و١٩١١.

ولمصطفى الصابونجي فضل ادخال الكهرباء الى الموصل أول مرة وحدث ذلك عام ١٩٢١ حينما اشترى بعض

المولدات من الجيش البريطاني ونصب الاعمدة ومد الاسلاك التي اثارت بعض الشوارع والبيوت وتعاقد مع البلدية.. وقد عثرنا على وثائق تشير الى انه قدم في ٨ ايلول عام ١٩٢١ طلبا الى رئيس بلدية الموصل قال فيه انه يريد نصب مولدات لأجل استحصال قوة الكتريكية في مقابل ماكنتنا المؤسسة في محلة الشيخ عمر انه يفعل ذلك لان الكهرباء من اسباب العمران والخدمة العمومية، وقد وافقت البلدية على ان تعطي مصابيح مجانا في تنوير الازقة وذلك بالمئة خمسة بالنسبة الى القوة التي يوزعها.

وفي مجال التعليم، كان له دور مهم في انشاء المدارس ومنها مدرسته مدرسة الصابونجي، كما ارسل عددا من شباب الموصل الى القاهرة عام ١٩٤٣ للدراسة في جامعة الازهر على نفقته.. وقد حصل طلبة البعثة على شهادة العالمية وعادوا الى الموصل ليبرزوا في ميدان الوعظ والتدريس ومن هؤلاء الاستاذان محمد محمود الصواف ومحمد علي العدواني، واتجه الصابونجي نحو الأمور الصحية، عندما علم بان المستشفى الملكي قد ضاق واصبح لايستوعب من المرضى الا ٢٥٠ مريضا وكثرت طلبات رئاسة الصحة بتوسيعه ولكن وزارة الصحة عجزت عن ذلك فتقدم مصطفى الصابونجي عام ١٩٤٩ بطلب توسيعه وانشاء ردهة على حسابه الخاص كما ورد في وثيقة محفوظة في ملفات محافظة نينوى وفي ٩ شباط عام ١٩٥١ تم افتتاح الردهة ويبدو ان عمله شجع وزارة الصحة فانشأت عام ١٩٥٤ ردهتين للامراض الباطنية ولا تزال الردهة التي بناها الصابونجي في المستشفى الجمهوري "الزهراوي" حاليا تحمل اسمه.

امتلك الصابونجي ثقافة متطورة وكان هاجسه خدمة مدينته ووطنه وكان لسفره الدائم واطلاعه على ما يجري في الدول المتقدمة اثر في اتجاهه نحو بناء صناعة وطنية فأنشأ عام ١٩٢٨ معملاً باسم (منتوجات معمل الصابونجي الوطنية) وكان مخصصاً لانتاج المنسوجات والملابس الرجالية والنسوية وفي عام ١٩٢٩ استورد معملاً لتقطير العطور واطلق على بعض عطوره اسماءعديدة منها عطر ياسمين.

واسس معملا لانتاج السكائر من التبوغ العراقية وحملت سكائره اسماء منها سكائر عروسة، سكائر فاطمة رشدي.. وقد نظم كاتبه ومحاسبه الشاعر المعروف بطرس أدمو، قصائد في التغني بسكائر الصابونجي، وكان للصابونجي معمل للبسكويت واخر للخزف الصيني وثالث للتريكو وأسس معملاً لصداري طالبات وطلاب المدارس.. وانشأ محلجا للاقطان، ومعملا لطحن الَحبوب واخر للدباغة وحين شعر بحاجة العراق الى مشروع صناعي لانتاج الزيوت النباتية التي كان يستوردها العراق وتستنزف اثمانها ثروات البلاد اتفق مع محمد حديد وجعفر ابو التمن وكامل الخضيري واخرين على انشاء شركة الزيوت النباتية العراقية المحدودة التي باشرت اعمالها عام ١٩٣٩ وكانت من المشاريع الرائدة التي تعرف اليوم بالمشاريع المختلطة. حيث كان للمصرف الصناعي حصة في رأسمالها.

وضع الصابونجي لنفسه اهدافا وطنية اقتصادية سعى الى تحقيقها من خلال اقامة صناعة حديثة وتحسين انتاجها وحمايتها من منافسة المنتوجات الاجنبية، وقد دعا الحكومة الى تشجيع الصناعة الوطنية ومنحها الاعفاءات والتسهيلات اللازمة وشجع الاهالي على الاستثمار في مشاريعه ورفع شعارات منها "اخدموا انفسكم وبلادكم، واحفظوا دراهمكم بشرائكم منتوجاتكم الوطنية "ولا حياة لبلاد تذهب دراهم للخارج ولاتعود".

لقد اسهم مصطفى الصابونجي في النشاطات السياسية في الموصل ويشير الدكتور عبد الفتاح علي يحيى في رسالته للماجستير الموسومة (الحياة) الحزبية في الموصل عام ١٩٢٦ -١٩٥٨ الى ان جمعية العلم السرية المؤسسة في الموصل عام ١٩١٤، كانت تدعو الصابونجي الى حضور اجتماعات هيئتها الادارية للاخذ ببعض ارائه في المسائل الوطنية.

وبعد تشكيل الحكومة العربية في دمشق عام ١٩١٨ تحرك الوطنيون في الموصل من اجل تشكيل حزب يناضل ضد المحتلين الانكليز وكان من هؤلاء سعيد الحاج ثابت وداود الجلبي ومصطفى الصابونجي وبعد تشكيل الدولة العراقية اختير ليكون عضوا في لجنة انتخابات المجلس التأسيسي لمكانته ولقربه من القيادات الوطنية من جهة ولنفوذه الكبير لدى الحكومة.

كما كان للصابونجي نشاطات كثيرة على الصعد العمرانية والانسانية فدعمه للعوائل المتعففة وتقديمه المساعدات المالية للطلبة وتبرعاته السخية لتعمير المساجد والمراقد والجوامع واسهمه في بناء مقر لجمعية الشبان المسلمين ، واقامته لمنائر الجامع الكبير.. كل هذه الاعمال ظاهرة للعيان وابناء الموصل ما زالوا يتذكرون جهود هذا الرجل ويضربون المثل بها ويتمنون ان يحذوا اغنياء الموصل اليوم حذوه وقد ظل الصابونجي رحمه الله تعالى حتى وفاته يوم ١٧ اب عام ١٩٥٤ مخلصا لوطنه ساعيا من اجل تقدمه ونهضته.

عادات في الذاكرة البغدادية

يعتقد البغداديون ان حكة اليد اليمنى تعني ان صاحبها سيحصل على دراهم وان حكة الخد تدل على مجيء ضيف عزيز تبادل معه القبل على الخدود وان حكة الخشم (الانف) تبشر بأكلة سمك وان حكة الرجل اليمنى تشير الى ان احدهم ذكر صاحبها قدحا او مدحا وان رجفة الكتف تدل على لباس جديد وان وجود شعراية باللسان ينبيء بوصول صوغة اى هديةومن عوائد البغداديين ايضا اذا سافر احدهم فان زوجته لاتنتصنع ولا تتزوك(اى لا تتجمل ولاتستعمل اية مادة من مواد التجميل) حتى يعود زوجها واذا سكنت عائلة بجوار عائلة اخرى فمن واجب الجوارين تكريم الجار الجديد بارسال (خبر)فحواه ان غذاء يوم الغد سيكون من بيت فلان.وهذه من العادات اللطيفة التي تتيح الفرصة للعائلة الجديدة في ترتيب البيت وفرشه وتنظيفه فضلا عن ان ام البيت (تعبانة) ولا وقت لها تصرفه في طبخ الغذاء (لصاحب البيت والجهال).

وهي كذلك عادة توطد اسباب التعارف الذي لابد منه بين (الجوارين) وهكذا تبقى العائلة الجديدة مدة اسبوع او اكثر والجوارين يتناوبون في ارسال صواني الغداء الحافلة بكل مالذ وطابومن عادتهم ان الابن لايدخن السجارة بحضور والده حتى لو كان الولد متزوجا وعنده اولاد وكذا الاخ بالنسبة لاخيه الاكبر زياة في الاحترام كما لايضع (رجل على رجل)اثناء الجلوس في مجلس يجمعه بمن هو اكبر منه سنا كما ينهض هو وجميع الحاضرين عند دخول رجل اكبر منهم سنا وتلك لعمري من الصفات الحميدة واذا وجد احدهم قطعة خبز على الارض فانه لايطؤها بقدمه بل يلتقطها ويقبلها ثم يضعها في (فتحتة الحايط) او بالقرب منه كما انهم يلتقطون من الارض كل ورقة مكتوبة ويحرقونها او يضعونها في ثقب الحائط ايضا خشية ان يكون فيها اسم الله جل جلاله .

لايجوز كنس فناء الدار وقت الغروب لكي لا تزول النعمةعندما يأتي شهر صفر فالناس تضع قطعة نقدية في الشربة وتكسره بباب الدار ،وبعد مضي هذا الشهر ومجيء شهر ربيع الاول تقول:

الناس ذهب صفر جانا ربيع يا محمد يا شفيع دفعا للبلاء .

اذا خرج ابو البيت للعمل تلقي زوجته او والدته خلفه الماء اعتقادا بان ذلك يفيد بالرزق والعودة بسلام واذا ركبت فردة النعال او الحذاء يكرم السامعين معناها صاحبها راح يسافر ،اذا افترشت الدجاجة الارض يعني قدوم ضيف وكذلك اذا زقزقت العصافير او نزل العنكبوت من السقف واذا زحف الطفل الذي يستطيع المشي واذا كنس الطفل الارض واذا طفر العجين من النجانة واذا غسلت البزونة ونحكي بتفصيل نوعا ما عن تناثر العجين من بين يدي العجانةعندما تضع المرأة الطحين في الصحن المعد للعجين وتبدأ بعملية العجن يتطاير بعض العجين الى الارض من بين يديها فتعتقد بانه لابد ان يأتيهم في هذا اليوم ضيف (خطار) وبذلك تخبر اهلها معلنة لهم بانه سوف يأتي اليهم في هذا اليوم ضيف وذلك لان عجينها يتطاير من الصحن وهو من نصيبهم حسب ما تعتقد.

تحتفظ الام بملابس ولدها البكر لتلبسها لاولادها اللاحقين او اولاد اولادها يتشائم الناس من يوم السبت ويتفائلون بيوم الاثنين اذ يعدون هذا اليوم هو يوم الرسالة وولادة الرسول ويوم وفاته (صلى الله عليه واله وسلم) .

يتشائم الناس من عدم تناول العشاء ليلا اذا قلبت ملعقة الشاي في القدح على غير وجهها فدلالة على تنبه الشارب بوجود النقص وخاصة في الريف ، وقوع العصابة من رأس المرأة يحدث في بعض الاحيان ان المرأة وهي جالسة تنحل (تفتل) عقدة عصابتها فتنزل على رأسها فتعتقد بان نساء اخريات قد اجبن ذكرها (مسكن شدها) وهذه الحالة تشبه (طنين الاذن) فنجدها تقول ان شاء الله خيرا، وبعد ذلك تشد عصابتها كما كانت في سابقتها.

حك رجل العزب والعزبة (الشاب والشابة) لدى العروسين عند حدوث زواج في القرى نجد عزاب تلك القرية يأتون الى مخدع العروس (اكوفة) ويبدأ العروسان بحك ارجل هؤلاء العزاب وذلك اعتقادا من ان هؤلاء العزاب (الشباب والشابات) بان حك ارجلهم عند العروسين سوف يسهل ويسرع في زواجهم ويقولون المثل الاتي (ان انمطرت كاع تتبشر اخوتها).

ويحكى ايضا في حـــك اليدين في بعض الاحيان يحدث ان يدي الشخص تبدآن بحكة فيعتقد بانه لابد من ان يمسك نقودا او شيئا غريبا في اليوم التالي، وقد يتحقق هذا الاعتقاد في بعض الاحيان مما يزيده اعتقادا في هذا الحالة وهي (صدفة) فاصبح يعتقد بانه كلما حكته يده لابد من ان يقبض نقودا او شيئا غريبا فيها.

رفيف العين ونقصد بالرفيف اي تحرك جفن العين العلوي عدة مرات فيعتقدون ان تحرك جفن العين لابد ان يأتي شخص عزيز وغائب على صاحب العين، وهذا الشخص غائب منذ عدة ايام.

فباعتقادهم ان العين تعلم لانها اداة الرؤيا ولذلك نجد النساء يقولن (رفت عيني لابد من ان يأتي عزيز علي) وتوضع غالبا قشة على الجفن لابطال الرفيف. وقوف اللقمة في البلعوم عندما يتقدم الشخص للاكل وبعد ان يأكل لقمة او لقمتين لا تدخل احداهما في البلعوم بسهولة اي يلاقي صعوبة في بلعها فيعتقد بان احد ابنائه ان كان متزوجا او احد المقربين له اذا لم يكن متزوجا جائع. ولذلك لاتدخل اللقمة بسهولة وتحدث عادة مثل هذه الحالة عندما يكون ذلك الشخص مغتربا (اي) بعيدا عن اهله !!.

عن كتاب بغداديات لعزيز الحجية

الذكريات صدى السنين الحاكي..

قصة أقدم ساحات بغداد

صادق الازدي

بغداد اليوم، الممتدة الضواحي شرقاً وغرباً..شمالاً وجنوباً..

بغداد هذه لم تكن تمتد الى ما هو اكثر من باب المعظم حتى الباب الشرقي، ومن نهر دجلة الى باب الشيخ حتى الشيخ عمر، هذا في جانب الرصافة، اما كرخ بغداد فكان يمتد من الجعيفر حتى الشواكة طولاً.. ولايزيد العرض على العلاوي ، وما جاورها!

هكذا كانت بغداد، في الثلاثينيات حيث كان بعض الاثرياء من سكانها، وبعض كبار موظفيها يتطلعون نحو الضواحي القريبة لبناء دورهم الجديدة على ارضها، فقام البناء في منطقة البتاويين وفي باب المعظم –الكرنتينة – وغيرهما من المناطق.

ساحات بغداد!

وبغداد العشرينيات والثلاثينيات عرفت بعض الساحات ذات الاشجار واقدم تلك الساحات ذات الاشجار، كانت تقوم في منطقة الميدان مقابل جامع الاحمدي، فقد كان الميدان من اشهر معالم بغداد في اواخر العهد العثماني واوائل العهد الملكي..

وقد ذكر احد الرحالة الانكليز الذين زاروا بغداد في نهاية القرن الثامن عشر، انه زار منطقة الميدان ليلاً، وكانت مضاءة بالنيران المشتعلة في الخشب والناس تجمعوا حولها يغنون وينشدون ويستمدون الدفء منها!

وقد اقيمت في الميدان نافورة ماء يتجمع الماء المندفع منها في حوض اسمنتي اسفلها، وكان ذلك الحوض يقع مقابل مدرسة المأمونية الابتدائية، "وكانت تقع في مدخل محلة البقجة" ويقع خلفها مباشرة المدفع العثماني القديم المشهور باسم "طوب ابو خزامة" وكانت النسوة البغداديات يزرنه ومعهن اطفالهن المرضى، ويوقدن الشموع عنده، ويعلقن قطع القماش به.

فقد كان الاعتقاد السائد يومذاك ان المدفع له "كرامات"، وقد نقل فيما بعد الى الباب الوسطاني في الشيخ عمر عندما اقيم المتحف العسكري هناك، ونقل مرة ثانية ليوضع في الحديقة التي قامت مقام الحوض السابق ذكره عندما نقل المتحف الحربي الى المبنى الذي يحتله اليوم قصر الثقافة والفنون، وقد وضعت لوحة تنبه الناس الى مكان المتحف، ونقل مرة ثالثة بعد ان نقل المتحف الى مكان جديد، وتقوم اليوم حديقة وسطية صغيرة في المكان الذي كان فيه المدفع – طوب ابو خزامة–!

منطقة الميدان..

وكانت منطقة الميدان معروفة جدا بالنسبة لسكان بغداد.. ومعظم الذين يزورونها من سكان المحافظات ، ذلك ان جميع الملاهي البغدادية كانت تقوم في المنطقة.

وكذلك "البارات" والمقاهي والفنادق، قبل ان تنشب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، صارت الملاهي تنتقل سلفاً الى اماكن اعدتها لها امانة العاصمة، وهي من المحلات الصيفية المكشوفة، وكانت تقوم في "حديقة المعرض" بباب المعظم، وقد حلت بمكانها بنايات بعض الدوائر، وظلت الملاهي تحل فيها صيفاً وتعود الى اماكنها شتاء بعضها في الميدان وبعضها الاخر صارت تحتل اماكنها الجديدة في الباب الشرقي.

وقد صارت كلها في ذلك الجزء من بغداد وبعضها انتقلت ابعد من ذلك! ولكن ذلك تم خلال سنوات.

حديقة ثانية!

وبعد ان أزيلت بعض الدور وقامت مكانها محطات بدايات انطلاق حافلات نقل الركاب العامة، قامت امامها من ناحية شارع الرشيد حديقة وسطية، استقرت على وضعها الراهن بعد تغييرات جمة..

حديقة جسر الاحرار

ويقوم هذا الجسر الحديدي حيث كان يقوم "جسر مود".. وهو الجسر الذي انشأه الانكليز في بغداد بعد احتلالهم لها، وكان في بغداد كلها جسرها الذي كنا نسميه "جسر العتيك" تمييزاً له عن الجديد، ولما تم بناء الجسر الحديدي قبيل الحرب العالمية الثانية، انشأوا حديقة صغيرة امام مدخله لغرض تنظيم مرور وسائط النقل المقبلة من الكرخ الى الرصافة عبرذ لك الجسر.. وقد تم زرع نخلتين فيها شاهدناهما وهما ليستا غير فسيلتين وهما الآن من النخيل العائطة!!

ساحة الباب الشرقي

وكما ان ساحة الميدان تعود الى بداية القرن الحالي فكذلك ساحة الباب الشرقي التي تعود الى اوائل الثلاثينيات وقد اقيمت بعد ان انشأت امانة العاصمة يومذاك "حديقة غازي" التي صار اسمها فيما بعد "حديقة الامة"، وقد قامت الحديقة على ارض منخفضة كانت عربات "الزبل" تلقى فيها حمولتها!..

مقابل تلك الحديقة كانت تقوم "الكنيسة الانكليكية" في بناية قديمة هي من اجزاء سور بغداد.

فتم هدمها عند فتح شارع غازي الذي اسمه اليوم شارع الخلفاء فاقامت حديقة وسطية –ساحة – وبعد اجراء التغيرات التي تلت اقامة جسر الباب الشرقي الحديدي حصلنا على ساحة ، ما لبثت ان تحولت الى نفق للسيارات.

أقدم عمارة!

وكانت عمارة مرجان هي اول عمارة تقام في الباب الشرقي وتقابل حديقة الامة وتطل عليها كما تطل على تمثال عبد المحسن السعدون الذي نقل الى مكانه الحالي من مكانه الاول الذي صار شارعا تقف على جانبيه حافلات نقل الركاب العامة.

هذه هي ساحات بغداد او حدائق الشارع الوسطية بين الباب الشرقي وباب المعظم وهناك بطبيعة الحال عدد كبير من الساحات المنتشرة في جانب الكرخ.. وفي شارع الخلفاء وغيره من شوارع بغداد، الا ان الساحات التي ذكرناها هي اقدمها على الاطلاق.

مجلة بغداد اذار 1965

حديقة وسطية في الميدان

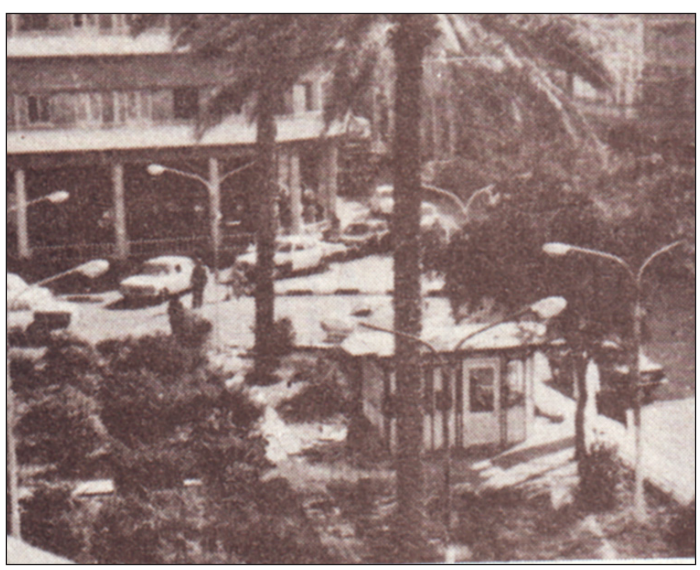

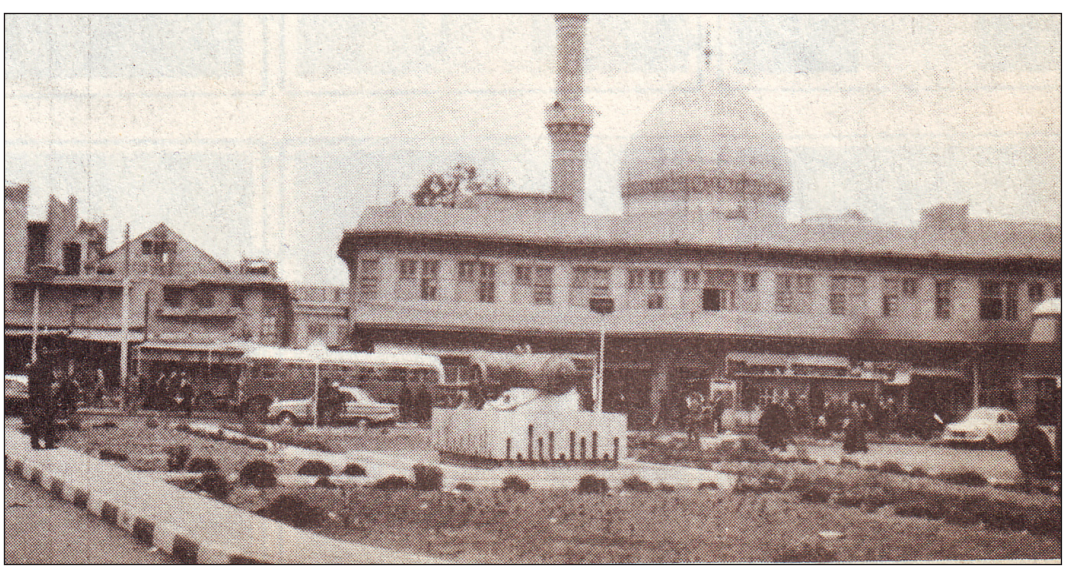

الساعات الأخيرة من حياة الملا عثمان

خالد محسن اسماعيل

كان العصر عصره بلا منازع!

حرمه الجدري نعمة البصر فحباه الله سبحانه وتعالى نعمة البصيرة وعاش في فيض النور، وكثير من المبصرين حوله يتلمسون مسالكهم.. عبثاً، في وهج الشمس، واطلقه في سماء الدولة العثمانية نجما تتنازعه عرائس الالهام.. فكان القارئ المقرئ المتصوف الشاعر الثائر الموسيقار الصحفي السياسي شعلة الذكاء وبهجة المجالس ومهوى افئدة الناس. قريبهم وبعيدهم فالكل في هوى الملا عثمان أسير!

ترى كيف اجتمع كل (هؤلاء) في (واحد) فكان (طاقة) فواحة باعذب الفنون؟ أجل.. انها ارادة الله تعالى في خلقه، يهب لمن يشاء حياة او بعض حياة ويهب لمن يشاء الحياة كل الحياة فتبارك الله تعالى احسن الخالقين.

وفي الذكرى التاسعة والستين لوفاته (٣٠ كانون الثاني عام ١٩٢٣) يطيب لنا ان نستذكر الملا عثمان باستذكار الساعات الاخيرة من حياته التي امتدت ايضا تسعة وستين عاما (١٨٥٤ -١٩٢٣) كما يرويها تلميذه رفيق لحظات الموت المقرئ البغدادي الاصيل الاستاذ عبد الفتاح معروف.

ففي مغرب يوم الخميس الرابع من تموز عام ١٩٨٥ كنت واحد الاصدقاء في دار الاستاذ عبد الفتاح في حي المأمون نستمع في ما نستمع الى تاريخ ما غفل عنه التاريخ.

قال الاستاذ عبد الفتاح حين ذكرت له اسم الملا عثمان الموصلي، وهو يضرب ركبته بقوة شاب في العشرين لا شيخ في التسعين عنا.. في حجري اسلم الملا عثمان الروح! وانهمر كالغيث يروي وقائع ذلك اليوم المشهود وكانه يقرأ في كتاب مفتوح:

في ضحى يوم مطير جاءني الى داري في محلة "سوق حمادة" في الكرخ (احمد) بن الملا عثمان يبلغني على عجل مضطرب أن اوافي والده ولم يزد ، وعبثا حاولت ان افهم منه اكثر من ان الملا عثمان يطلب حضوري تواً، كنت اعلم انه غادر منذ ايام غرفته في جامع الخفافين الى دار اولاده في محلة، "فضوة عرب". بباب الشيخ بعد ان اشتدت عليه وطأة المرض، وأمسى قعيد عناية وخدمة. فما الذي حدث؟ وانطلقت كالمأخوذ انتهب الدروب الموحلة من مطر ذلك اليوم الباكي غافلاً.. من ذهولي، عن (احمد) الذي تركته ورائي يكافح من اجل اللحاق بي وقد شغله اضطرابه عن تجنب وحل الطريق وانهمار المطر..

لقد احبني الملا عثمان وقربني اليه وخصني بكثير من فنونه وشؤونه ، كانت قراءتي ترضية وضبطي للاصول يطربه، كان يجد في تلاوتي وانشادي مما لايجده في الاخرين لأنني، كما كان لي يقول غير مرة..لا اقل احدا من القراء.. كان يناديني بالطف الاسماء واحلاها، يناديني بـ "بني" فضلا عن اسمي، وبين (ابني) و(عبد الفتاح) يجري اسمه على لسانه بوجوه المؤانسة المودة: فتاح، ..فتحي.. فتوحي.. فتوح!

ويكف الاستاذ عبد الفتاح عن حديثه وينقل وجهه في وجوهها وكأنه يفيق من حلم جميل ليستأنف رواية وقائع ذلك اليوم..

وفي الدار وجدت الملا عثمان طريحاً في احدى الحجر، وما كادت عيني تقع عليه حتى أيقنت انه، ويا فجيعة ما أيقنت ، يعالج ساعاته الاخيرة، وحين احس بحضوري استدناني منه فدنوت وجلست عند رأسه فلم يلبث ان طلب لي ان اقرأ له القران، وكأنه استبطاني وانا اقلب وجوه الرأي في ما ينبغي لي ان اقرأ فقال : اقرأ فأنا ما زلت حياً يا عبد الفتاح!

وانشأت اقرأ سورة "الذاريات" ثم لم ألبث ان دهمني شعور جعلني اقرأ وكأني في حضرة الرحمن وانني أؤدي امام الله تعالى شهادة للملا عثمان: "ان المتقين في جنات وعيون".. اخذين ما اتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالاسحار هم يستغفرون وفي اموالهم حق للسائل والمحروم.. الى اخر السورة الكريمة.. فتحرك الملا عثمان وتمتم: زد!

فبدأت بالسورة التي تليها، سورة "الطور" ولما وصلت الى قوله تعالى "ان المتقين في جنات ونعيم، فاكهين بما اتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون دمعت عيناه وسالت على خديه الدموع وقال: زد!

فواصلت القراءة. حتى اذا انتهيت الى قوله تعالى: كل امرئ بما كسب رهين، وامددناهم بفاكهة ولحم، مما يشتهون، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم، ويطوف عليهم غلمان كأنهم لؤلؤ مكنون، واقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا انا كنا قبل في أهلنا مشفقين، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم، انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم طلب الملا عثمان الماء، فدنوت منه، ورفعت رأسه ووضعته في حجري وارتج علي، فليس في الحجرة الا نحن الثلاثة ، الملا عثمان وانا والموت، فانحنيت عليه وقلت له وكأن المتكلم شخص اخر غيري.. تشهد !فردد الملا عثمان الشهادتين، وأدنيت الماء من فمه وسقيته قطرات، ثم أدنيت الماء ثانية وسقيته قطرات اخرى لكنها غرغرت في حلقه وأسلم الروح!وفزعت الى من في الدار احمل اليهم وقوع المصيبة ونفاذ قضاء من لا راد لقضائه سبحانه وتعالى!

-فتحي تجهز..ابوك مات!

وانحنيت جانبا وجهشت لبكاء طويل..

وهنا تهدج صوت الاستاذ عبد الفتاح معروف وكفكف دمعاً سال على الخدين الضامرين وأمسك فأمسكنا.

وفي ذلك اليوم المطير، الثلاثاء الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٢٣ حمل المشيعون جسد الملا عثمان الموصلي وعادوا به الى الارض في مقبرة الغزالي، اما روحه فقد سبقتهم راجعة الى ربها راضية مرضية مرتلة مع ذلك الصوت البغدادي الاصيل آخر ما سمعته وشهدت به على هذه الارض، إنا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم!

×انتقل الى رحمة الله تعالى يوم الخميس الخامس من كانون الثاني عام ١٩٨٩.

أسهم فقيد العراق المدرس في الحفل الوطني مساهمة فعالة في توجيه الرأي العام، وتبصيره بحقائق الأمور

للاستاذ خيري العمري

لقد برز المرحوم (فهمي المدرس) على مسرح السياسة العراقية كوجه وطني لامع سواء في الوظيفة او خارجها.. بل كان وهو في الوظيفة لايقل حماسة واندفاعا في مشاعره الوطنية واداء رسالته وهو بعيد عنها ككاتب من ابرز كتاب المقالة السياسية في تاريخ الصحافة العراقية.

ولعل من اهم المواقف السياسية التي عبرت عن شجاعته وجرأته وشعوره بمسؤوليته كرجل حريص على حقوق بلاده.. هو موقفه من المعاهدة الاولى التي اتجه إلى دار الانتداب البريطاني بعد اخماد الثورة العراقية وتتويج فيصل ملكا على العراق، الى فرضها على الشعب العراقي وتكبيله بقيودها وسلاسلها.

وفي هذا الوقت كان المدرس يتولى مركز رئيس الامناء في البلاط، فراح يعارض هذه المعاهدة، ويؤلب الشعب والصحافة ضدها، برغم ان الجو الذي كان يسود البلاط يميل الى اسنادها واقناع المترددين عليه من نواب وصحفيين بضرورة عقدها. وكان سكرتير فيصل (رستم حيدر) مع زمرة من اولئك الموظفين تسعى وراء هذا الهدف.

ومنذ اليوم الاول الذي دخل فيه المدرس الى البلاط والصراع بينه وبين تلك الكتلة يشتد حول المعاهدة، تارة ويخفت طوراً اخر.. وقد شعرت دار الانتداب ان وجود هذا الرجل الشديد الصلة بالمراكز الوطنية والشعبية، قد يعرض سياستهم الى الخطر وانتهزوا اول فرصة سنحت وطالبوا بعزله عن وظيفته متذرعين بحادثة وقعت في ٢٣ اب عام ١٩٢٢ واعتبروه مسؤولا عنها.

وخلاصة ذلك الحادث: ان تظاهرات شعبية قامت في ذلك التاريخ بمناسبة مرور عام على تتويج فيصل تطالبه باقالة وزارة النقيب ومعارضة ابرام المعاهدة.. وبينما طلع فهمي المدرس يستقبل باسم فيصل هذه التظاهرات اقبل السير برسي كوكس المندوب السامي بسيارته ونزل منها ليشق طريقه بين الجماهير المحتشدة الى البلاط وليقدم التهاني... فتعالى هتاف في هذه اللحظة بسقوط الانتداب البريطاني فامتقع لون السير برسي كوكس غضبا واسرع بعد ان ادى المراسيم عائدا الى مكتبه، وما ان وصل اليه حتى ارسل احتجاجا شديد اللهجة يطلب فيه اقالة المدرس وابعاده عن مركزه.

ومع ان المدرس لم يكن له يد فيما وقع الا ان دار الانتداب كانت تتربص الفرصة المناسبة فتذرعت بهذه الحادثة والصقت مسؤوليتها به، وسرعان ما استجاب فيصل لهذا الطلب.

وانصرف (فهمي المدرس) بعد ذلك الى الحقل الوطني فاسهم مساهمة فعالة في توجيه الرأي العام وتبصيره بحقائق الامور وتشجيعه على التمسك بحقوقه الوطنية، فنذر قلمه للدفاع عن اهدافه وامانيه في الاستقلال والتحرر الوطني، فكانت مقالاته تعبر عن مشاعر الشعب وتنزل على رؤس الفئات الحاكمة نزول الصاعقة بما تنطوي عليه من تهكم لاذع وسخرية مريرة، وبما تكشف عن مفارقات وفضائح!

وكانت الصحف الوطنية تتسابق في العناية بمقالات المدرس وتنشرها على صفحاتها الاولى مذيلة باسم (الكاتب العراقي الكبير) وهو اللقب الذي منحته الصحافة العراقية له، فاصبح مقرونا باسمه يعرفه الخاص والعام ولم يسلم الرجل من بطش السلطات التي ضاقت ذرعاً بقلمه فلم ترع لشيخوخته اية حرمة وابعدته في شتاء قارس البرد الى منفى بعيد عن اهله واسرته واصحابه حيث امضى فيه هذا الشيخ اسوأ ايامه واحلك ساعاته.

وقد قام الرأي العام العراقي لهذا الاجراء وقعد..

وبادر يضغط على الهيئات والاحزاب فهبت الاحزاب الوطنية المعارضة تدافع عن كاتبها الذي طالما وضع قلمه تحت تصرفها وجرده للدفاع عن مطاليبها واهدافها فاحتج حزب الاخاء الوطني على ذلك. واسرعت الصحف الوطنية تحبر المقالات وتكتب الافتتاحيات وتنظم حملة تطالب بعودة المدرس. وانبرى بعض الاحرار وفي مقدمتهم معروف الرصافي في البرمان يدافع عن زميله المدرس في هذه المحنة.

واضطرت السلطات تحت ضغط الرأي العام وامام هذه الحملات التي تعرضت لها الى اعادة المدرس.

في سيرة فهمي المدرس صفحات لامعة وجوانب مشرقة حري بالجيل الجديد ان يقرأها في كتاب يتناول تلك الصفحات ويجلو ما فيها من جهاد وكفاح وان يطالعها في سفر يعرض لتلك الجوانب بما يكشف عن الدور الذي لعبه (المدرس) في خدمة البلد وما بذله في سبيله من جهد وعناء..فعسى ان يجرد احد كتابنا قلمه ليعرض سيرة المدرس في كتاب يضعه بين ايدي الجيل الجديد.

ولعل احسن عمل يقام به تحية للرجل في ذكراه ووفاء لكفاحه وتثمينا لدوره، هو المبادرة الى جمع ما خلفه سواء من كتب طبعت منذ زمن بعيد بحيث اصبحت الان نادرة او مقالات ومحاضرات متفرقة هنا وهناك في بطون الكتب والمجلات والصحف او ما تركه من مخطوطات لاتزال حبيسة صناديق حديدية تنتظر من يخرجها الى النور وينشرها جميعا في كتاب او اكثر!

جريدة الحرية 15 اب عام 1969

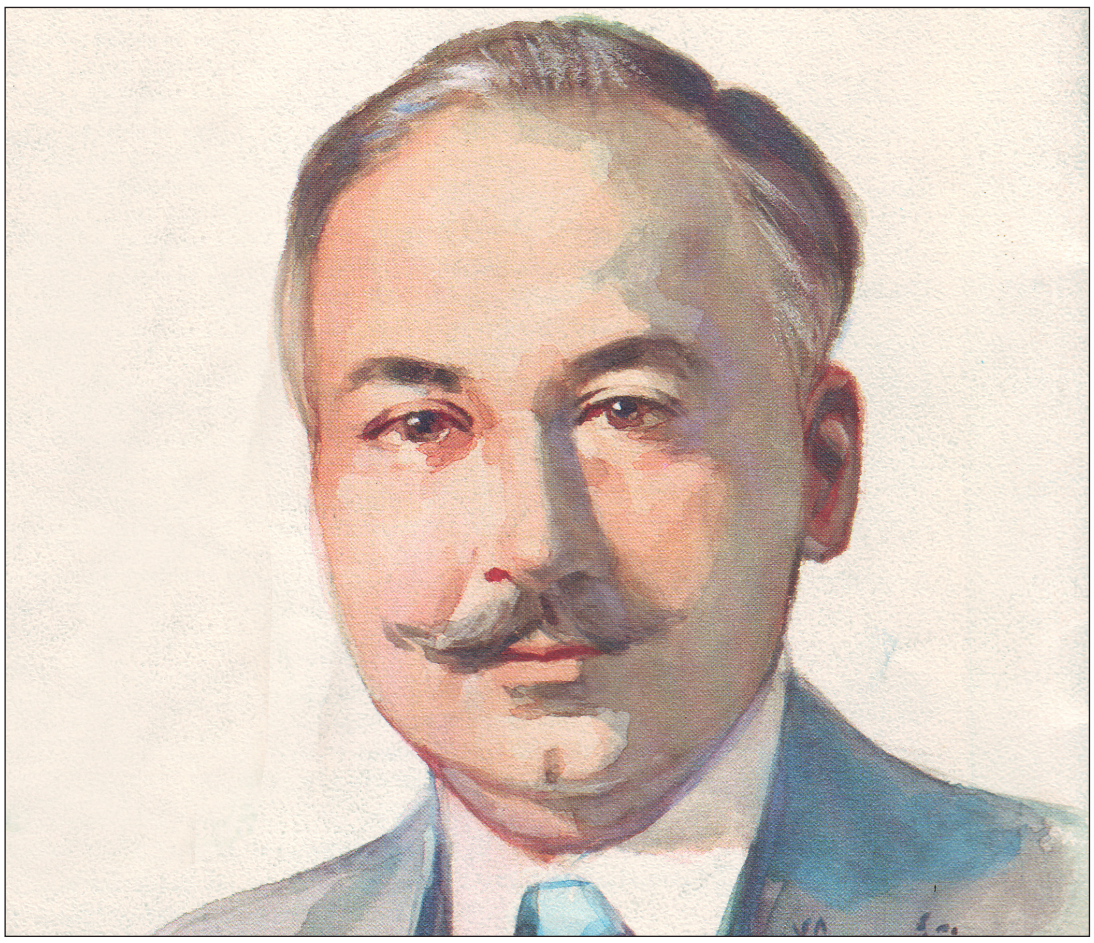

فهمي المدرس

قبر المدرس

المدرس على مسرح السياسة العراقية
الرأي العام في العراق ينتصر للمدرس ضد بطش السلطات

ذكريات (أيام زمان)

يكتبها عبد القادر البراك

قانون دعاوى العشاير

رفائيل بطي في طريقه الى الابعاد

جعفر ابو التمن

ناجي شوكة

رشيد عالي الكيلاني

ولم يسلم من ناره حتى النواب والاعيان!
كان (قانون دعاوى العشاير) من أسوأ ما جلبه المحتلون البريطانيون للعراق في احتلالهم الاول من الهند، فهو ابعد ما يكون عن (القانون) شكلا وموضوعا ولكن المستعمرين البريطانيين الذين مارسوا ابشع انواع الجور والتعسف حيال القارة الهندية التي كانت مبتلاة باستعمارهم، واعتبره الجلاوزة الذين نفذوا ما اسموه بالقانون نجاحا في ادارة شؤون البلاد والعباد يصلح للتنفيذ في العراق، فكان فرض الامور بالقوة على شعب مستضعف يكسبها المشروعية او الصلاح..!
في حين ان تطبيق (قانون العشاير) كان من بين اسباب الثورة العراقية الاولى ضد الاستعمار واعوانه.
بل انه كان من اهم عوامل التذمر والاستياء التي استغلها بعض محترفي الحكم من ساسة العهد الملكي لاثارة الحركات العشائرية للاطاحة بمن يريدون الاطاحة بها من الحكومات واعتلاء الكراسي بدلهم.
والغريب ان هؤلاء الساسة الذين تبنوا فكرة الغاء وتعديل الكثير من القوانين والانظمة التي وضعت لغرض مصالح المستعمرين واعوانهم بالقوة، كانوا اول المترددين في تحقيق ما كانوا يطالبون به.
حتى ان هذا القانون طبق على عدد كبير من الساسة والمفكرين لمجرد معارضتهم الحكم فابعدوا الى خارج مناطق سكناهم وفرضت عليهم (الاقامة الاجبارية) في اماكن موبوءة ونائية كما فعل نوري السعيد في ابعاد فهمي المدرس والكاتب الكبير رفائيل بطي، الصحفي المعروف لنشرهما مقالات ضد المعاهدة العراقية – البريطانية اعتبرت ماسة بالذات الملكية.
×وبالرغم من مهاجمة المعارضة التي كانت متمثلة بصادق البصام وبهجة زينل وسعد صالح وصالح جبر ومعروف الرصافي وغيرهم. فان نوري السعيد ووزير داخليته ناجي شوكة ردا على المعارضة بعنف واصر الاخير باتخاذ الاجراءات القانونية المناسبة ومن المفارقات ان رشيد عالي الكيلاني الذي كان يدعو الى الغاء قانون دعاوى العشاير باعتباره من القوانين الاستعمارية واستمر في تأييده هذه الدعوة بعد تسنمه منصب وزارة الداخلية في وزارة ياسين الهاشمين الثانية عام ١٩٣٥ تنكر لما كان يدعو اليه، حتى جاء اليوم الذي طبق فيه جميل المدفعي هذا القانون على رشيد عالي الكيلاني بالذات حين فرضت عليه الاقامة الاجبارية في قضاء (عنه) كما فرضت على اعوانه من الساسة الاقامة في العديد من المناطق النائية كعبد الوهاب محمود وطالب مشتاق وفايق السامرائي وغيرهم ممن لاتحضرني اسماؤهم!
×ولعل اقسى ما وجه الى المعاهدة العراقية – البريطانية من اعتراضات كونها الزمت الحكومات العراقية بتنفيذ القوانين التي وضعت خلال الاحتلال والانتداب مع انها مخالفة للقانون الاساسي من حيث الاسس والمبادئ حتى قيل ان هذه المعاهدة صيغت من الفاظ البيان الذي تم فيه الاحتلال والانتداب البريطانيين للعراق.
×لقد كان عدد كبير من النواب ومنهم بعض نواب العشاير يدعون الى الغاء القانون السالف الذكر في عهد وزارة الهاشمي وقد وافقت الوزارة بلسان وزير العدل محمد زكي على تأليف لجنة من بعض القوانين والنواب لدراسة هذا القانون وتعديله او الغائه وشاءت المصادفة ان يكون العلامة عبد الرزاق السنهوري يومذاك منتدبا للعمل في العراق فاقترح بعض النواب الاستعانة به ليكون عمل اللجنة امتن وارسخ.
وبالفعل فقد ادخل السنهوري على القانون تعديلات مهمة فالغى الكثير من مواده وازال الكثير من المساوئ التي كان يتعرض لها الناس ليس من تطبيق القانون فقط بل من اساءة تنفيذه.
×وبعد انتخاب وزير العدلية محمد زكي لرئاسة مجلس النواب تولى رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية الوزارة المذكورة وكالة وحل محل وزيرها في رئاسة لجنة تعديل قانون العشاير فلما رأى الصيغة الجديدة المقترحة من قبل السنهوري رفضها باعتباره – أي السنهوري – قد جاء بأحكام تضعف من قوة الحكومة (الانضباطية) واذا كان الشيء بالشيء يذكر فان كامل الجادرجي الذي انشق في وقت سابق عن حزب الاخاء الوطني، الذي كان يتزعمه الهاشمي والكيلاني وانضم الى المعارضة بقيادة جعفر ابو التمن، كتب مقالا بتوقيع مستعار لنشره في احدى الصحف الدمشقية يعترض فيه على اسناد وزارة العدلية بالوكالة الى وزير الداخلية الاصيل، لان ذلك يشكل خرقا للدستور وعدوانا من السلطة الادارية على السلطة القضائية ويحد من استقلال كل سلطة.
×وقد كان هذا المقال من بين المقالات التي حملها صحفيو دمشق الى رئيس الوزراء الهاشمي فاحالها الاخير الى بكر صدقي رئيس اركان الجيش لاحالة كاتب المقالات المذكورة الى المجلس العرفي العسكري لكن التعاون الذي بدأ مؤخراً بين بكر صدقي والمعارضة جعله يتهاون في احالة الجادرجي للمجلس العرفي.
وقد نشرت هذه المقالة في كراس نشر بعد انقلاب بكر صدقي بتوقيع عبد الله البصير كما فصلنا ذلك في حلقة سابقة من (ذكريات ايام زمان).
×ولقد استمر تطبيق قانون العشاير بعد وزارة الهاشمي والوزارات التي تلتها بشكل جعل المطالبة بالغائه تزداد على تعاقب السنين، وكان هذا التطبيق من القساوة بحيث نزع (الحصانة البرلمانية) التي كان يتمتع بها بعض النواب والاعيان فطبق ضدهم عندما حاولوا معارضة بعض الوزارات بل انه طبق في عهد وزارة نور الدين محمود بحق عدد من الساسة المعارضين.
×وحين ارادت بعض الحكومات ان تعدل هذا القانون صاغت بديلا له اسم (ادارة القرى) الذي القى على سكان القرى والارياف مسؤوليات وتبعات ضخمة وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي في طليعة من انتقدوا لائحة هذا القانون الذي لم يتخلص الناس من احكامه الا بعد اندلاع ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ضد العهد الملكي وقيام الحكم الجمهوري الزاهر.

جريدة البلد 1966

معروف الرصافي

صادق البصام

جميل المدفعي

ودورة في السياسة العراقية

جميل المدفعي المولود في الموصل عام 1890 والمتوفى عام 1958 هو واحد من أهم الشخصيات السياسية التي حكمت العراق في العهد الملكي ويأتي بالمرتبة الثانية بعد نوري السعيد.
حيث تسلم الوزارة لسبع مرات وذلك للفترة من عام 1932 إلى 1953 أي خلال واحد وعشرين عاما كرسها المدفعي للعمل السياسي بشكل متواصل.

د.علي العكيدي

والمدفعي هو جميل بن محمد اغا النينوي – نسبة إلى محافظة نينوى – وقد اشتهر بالمدفعي كونه كان ضابطا مدفعيا في العهد العثماني ، استلم المدفعي رئاسة الوزارة كما أشرنا سبع مرات كانت الأولى في ٩/ ١١ /١٩٣٣ ، واستمرت حتى شباط ١٩٣٤ ، وفي الثانية تسلمها في ٢١/ شباط ١٩٣٤ حتى آب من نفس العام . وفي المرة الثالثة تسلمها في ٤/ آذار /١٩٣٥ حتى ١٧/منه ومن هنا نستنتج أن الفترة الزمنية لتسلم المدفعي الوزارة للمرات الثلاث الأولى وكذالك الفترات اللاحقة لها كانت قليلة قياسا بالنسبة لغيره من الذين تسلموا الوزارات العراقية قبله وبعده في العهد الملكي . أي أن حكومات المدفعي لم تعمر طويلا طوال عهده السياسي.

في المرة الرابعة تسلم المدفعي الوزارة في ١٧/آب/ ١٩٣٧ واستمر بها حتى بداية العام ١٩٣٨ وقد جاءت بعد أحداث مهمة ومؤثرة حدثت في العراق سنتوقف عندها ونتعرف من خلالها على سياسة إسدال الستار التي تبنتها الحكومة واهم الأسباب التي دعتها لذلك ولماذا تم اختيار المدفعي بالذات ليقود سياسة إسدال الستار ، يقول الأستاذ الحسني في تاريخ الوزارات العراقية: كان جميل المدفعي قد غادر العراق إلى سوريا في بداية تموز من عام ١٩٣٧ ، وذلك بعد انتهاء دورة الاجتماع غير الاعتيادي لمجلس الأمة في ٢٧/ حزيران ، وبعد التصريحات المدوية التي أدلى بها في مجلس الأعيان والتي شجب بها وبشدة تدخل الجيش في السياسة يومئذ ، وقد أعلن أو بالأصح اسرّ لاخصائه ومحبيه والمقربين منه عن رأيه في ضرورة التخلص من حكم الملك غازي ونزواته وبذلك يكون قد انضم برأي إلى جانب الحاقدين على الملك أمثال ، ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ، ونوري السعيد ورستم حيدر ، وغيرهم . ثم يواصل الحسني كلامه بخصوص عملية اختيار المدفعي للوزارة دون غيره قائلا : حدثني الدكتور سامي شوكت قائلا : لما ظهرت بوادر العصيان في الموصل وفي بغداد وشعر حكمة سليمان أن وزارته ذاهبة إلى غير رجعة ، اتصل بالملك غازي وعرض عليه أن تكون الوزارة التي ستلي وزارته تحت مسؤولية شخصية محايدة وغير انتقامية ، وحذره من أن تكون برئاسة نوري السعيد مثلا لئلا تتناول سياسته الانتقامية شخصية الملك بالذات على اعتبار أن الملك كان شريكا في حركة ٢٩/ت٢/١٩٣٦ (انقلاب بكر صدقي) وهي الحركة التي قتل فيها جعفر العسكري صهر نوري السعيد والشخصية العسكرية الرائدة ، ثم اقترح عليه إن من الخير للبلاد والعباد اختيار رجل حياد مثل جميل المدفعي ، على أن يؤخذ عليه عهد باتباع سياسة خاصة هي (سياسة إسدال الستار على الماضي بحسناته وسيئاته) .إلى هنا انتهى كلام شوكت بك إلى الأستاذ الحسني اذا فالمدفعي قد اختير من بين اقرانه ليكون رجل المرحلة الانتقالية الصعبة التي مرت بها البلاد ، فهو طيب السريرة ويثق بالآخرين بسرعة حتى إن خصمه وقرينه في السياسة نوري السعيد كان يصفه بأنه كالطبل الفارغ لا يصلح لان يكون مدير ناحية ومن هنا فان الجانب الوجداني الذي كان نشطا لدى شخصية المدفعي دفع الآخرين لاختياره لتنفيذ سياسة إسدال الستار على الرغم من سلبيات حكوماته السابقة التي شكلها بداية الثلاثينيات كما أشرنا ، وإسدال الستار يعني العفو عن وجبتين من العسكر الأولى قامت بقتل جعفر العسكري بأمر من بكر صدقي ، والثانية قامت بقتل بكر صدقي ومحمد علي جواد قائد القوة الجوية (وهو ابن عمة الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم) وذلك بدفع من كتلة الضباط القوميين ، وبذلك حدث نوع من الضجة في أوساط كل من أنصار جعفر العسكري المطالبين بالقصاص من قتلته وهم أنصار بكر صدقي ، وفي أوساط أنصار صدقي الطامعين بالاقتصاص من ضباط الكتلة القومية ، لذلك أراد الملك غازي تهدئة الأوضاع والعمل بسياسة إسدال الستار فوجه برقية إلى جميل المدفعي يكلفه فيها بتشكيل الحكومة بناء على رغبة مقربيه ومنهم رئيس الحكومة المستقيلة حكمت سليمان وفيما يلي نص البرقية:

برقية رقم 465 وزيري الأفخم جميل المدفعي بناء على استقالة فخامة حكمت سليمان من منصب رئاسة الوزراء ، ونظرا إلى اعتمادنا على درايتكم واخلاصكم ، فقد عهدنا إليكم برئاسة الوزارة الجديدة ، على آن تنتخبوا زملاءكم وتعرضوا أسماءهم علينا والله ولي التوفيق .صدر عن قصرنا الملكي ببغداد في اليوم العاشر من شهر جمادى الآخرة سنة ألف وثلاثمائة وست وخمسين الهجرية ، الموافق لليوم السابع عشر من شهر آب سنة آلف وتسعمائة وسبع وثلاثين الميلادية غازي

وهكذا قبل المدفعي تنفيذ سياسة إسدال الستار فاصدر الإرادة الملكية المرقمة ٤٦٦ لسنة ١٩٣٧ بتأليف الحكومة والتي لم تشمل الشخصيتين نوري السعيد وطه الهاشمي كما كانت تريد وترغب كتلة الضباط القوميين التي كانت ترى ان يكون لسعيد وللهاشمي دورهما في الحكومة تعويضا للأول عن قتل صهره وتعويضا للثاني عن مقتل أخيه ياسين الهاشمي (كمدا وقهرا) وهوفي سوريا لذلك لم تدم حكومة المدفعي إلا اشهرا ولم تتمكن من تحقيق سياسة إسدال الستار بشكل مرض فتآمر عليه قسم من ضباط الجيش واتصلوا به مطالبين إياه بالاستقالة وإلا فان الجيش سيغير الآمر بنفسه مما دفعه إلى الاستقالة وذلك في نهاية كانون الثاني من عام ١٩٣٨ .

وبذلك انتهت حكومة جميل المدفعي الرابعة وانتهت معها سياسة إسدال الستار التي لم تأت بثمارها ، وتسلم نوري السعيد الوزارة من جديد ليكون هو رئيسها وطه الهاشمي لمنصب وزير الدفاع وتستمر حتى مقتل الملك غازي في الثالث من نيسان ١٩٣٩وليتهم رئيسها من قبل الرأي العام العراقي بتدبير عملية تصفية الملك في حينها ، وقد علل صلاح الدين الصباغ في كتابه فرسان العروبة سبب سقوط وزارة المدفعي الرابعة على يد الجيش انها لم تحترم ارادة الجيش وذلك من خلال تعيين صبيح نجيب وزيرا للدفاع الذي أساء لكبار الجيش بممارساته في الوقت الذي كان يتطلع فيه الجيش الى تعيين طه الهاشمي وزيرا للدفاع كونه كان محط إعجاب وتقدير الجيش هذا فضلا عن أخطاء الحكومة الكبيرة في جوانب عديدة أخرى أهمها رفض تسليح الجيش بالسلاح المتطور وكذلك كان للحكومة دور كبير باضاعة شطر من أراضي العراق في معاهدة شط العرب المعقودة بين العراق وإيران حينها.

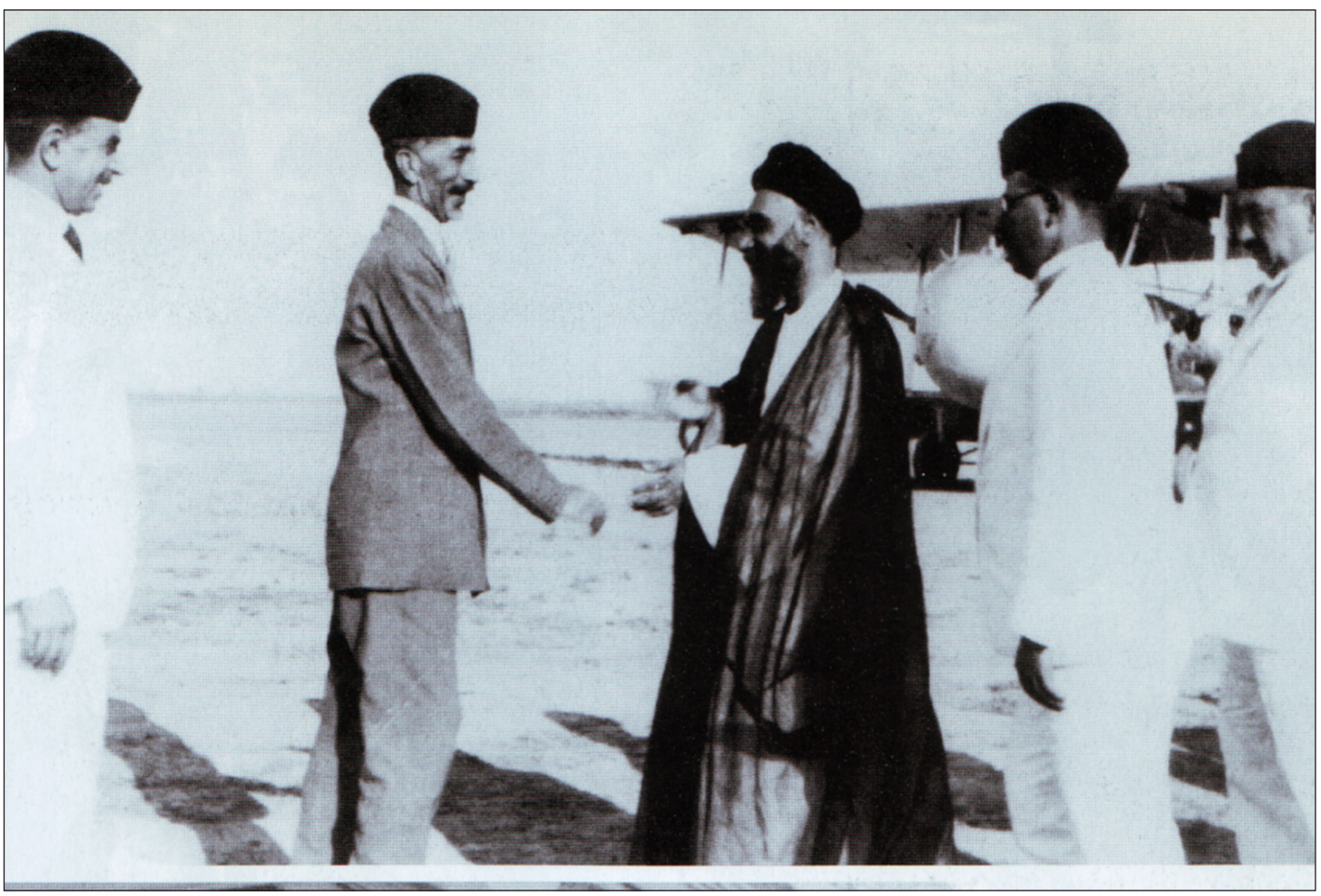

الملك فيصل الاول مودعا من قبل السيد محمد الصدر ويبدو في الخلف جميل المدفعي والشيخ عبد الحسين الجلبي

في عام 1928 حينما كنت رئيساً للمجلس النيابي في دورته الثالثة بدأت وزارة عبد المحسن السعدون تسعى لتعديل الاتفاقيات المتصلة بالمالية والعسكرية من المعاهدة العراقية البريطانية المعقودة عام 1927 فلم تتمكن من اقناع دار الاعتماد بهذا التعديل، فاضطرت الى تقديم استقالتها في 20 كانون الثاني 1929 فوافق الملك على قبولها وطلب منها ان تدير الامور وكالة حتى يتعين خلف لها. وبعد ثلاثة أشهر تقريبا كلف السيد توفيق السويدي بتشكيل الوزارة ودخلت معه في وزارة الداخلية واصبح عبد المحسن رئيساً للمجلس.
وبعد انقضاء الدورة سافر الى مصيف برمانا (لبنان) – للاستجمام، وبعد مرور شهرين على غيابه طلب مني الملك فيصل وكلفني ان اكتب كتاباً الى عبد المحسن استدعيه الى بغداد.. وكذلك كلف صفوة العوا مرتين باستدعائه.. اما انا فقد كتبت له كتاباً وبلغته رغبة الملك.

قضية انتحار عبد المحسن السعدون في عام 1929

وفي تاريخ ١٧ اب من السنة المذكورة رجع عبد المحسن الى بغداد وانتشرت الاخبار عن تأليف وزارة جديدة برئاسته على اثر تصريح بريطانيا بقبول العراق في عصبة الامم عام ١٩٣٢.. وفي يوم ١٩ ايلول عام ١٩٢٩ شكل السعدون وزارته من السادة المحترمين: ناجي السويدي للداخلية، وياسين الهاشمي للمالية ومحمد امين زكي للاشغال والمواصلات، ونوري السعيد للدفاع، وعبد العزيز القصاب للري والزراعة، وناجي شوكت للعدلية، وعبد الحسين الجلبي للمعارف. واجتمع الوزراء المذكورون في دار الرئيس وتذاكروا في منهاج الوزارة وقرروا اهدافه ومبادئه، وها انا ادرج نصه بعد انتهاء هذا البحث لاطلاع الشعب عليه بصورة واضحة فهو لم ينشر قبلا ولم يعلم الشعب حقيقته.
وحينما علم الانكليز بمنهاج الوزارة اخذوا يعارضون بكل شيء ويطلبون من الوزارة تنفيذ المستحيلات كتمديد عقود الانكليز او تجديدها وترفيع بعضهم وتبديل وتغيير بعض الموظفين العراقيين ومدراء الادارة او مأموري المالية.
وصاروا يعاكسون الادارة، بكل شيء والوزارة تقابل اعتراضاتهم بصبر وحكمة وصارت امور الدولة المهمة بين المد والجزر.. فدار الاعتماد من جهة، والوزارة من جهة اخرى، والملك بينهما يعاني الصعوبات ومقابل ذلك كله الشعب الذي يطلب المزيد من الاستقلال ، وفعلاً سارت الوزارة في تنفيذ خطتها بدون تردد.. فمن ذلك وظيفة مستشار مدير الزراعة البريطاني الذي بلغ راتبه اكثر من الف وخمسمئة روبية مع انه لم تكن لديه شهادة دراسية تستحق ذلك.. وكذلك راتب المستر كرايز الذي كان قبلاً مأمور طابعة ومستشار وزارة الري المستر (ألارد) الذي اعترض على الغاء المشتريات بواسطة وكلاء التاج.
ثم الغاء بعض الدوائر الزائدة كدائرة الاملاك ودائرة الرستمية ووكالة القيادة العامة وغيرها من المؤسسات التي لم يسبق ان ذكرت في المناهج السابقة حيث كانت المناهج الوزارية تعرض على دار الاعتماد وعلى البلاط قبل اقرارها ونشرها.. اما هذه الوزارة فلم تعلن منهاجها في الصحف عند تشكلها حسب العادة بل اشار رئيس الوزارة الى بعض نقاطه في المجلس النيابي عند مناقشة خطاب العرش في جلسة مجلس النواب الثالثة المنعقدة في ١١ تشرين الثاني عام ١٩٢٩ فاخذ النواب كمحمد زكي المحامي وجعفر ابو التمن ورشيد عالي الكيلاني يستوضحون ويستفسرون من الرئيس وهو يجيبهم باللين والهدوء حتى قام النائب معروف جياووك وقال له بالنظر لهذا المنهاج يظهر بأنكم تقصدون احداث الثورة في البلاد. فتأثر الرئيس من هذا الاتهام واراد ان يجيبه بشدة وقال لمن كان في جانبه من الزملاء: لازم اصرح الان واجيب هذا الجاسوس الانكليزي.. فمسكه ياسين الهاشمي الذي كان جالسا بجنبه وانا كنت بجنب ياسين فشاركته في التهدئة ومنعناه من ان يجيبه بهذه الصراحة فهدأ واستمر يجيب المعارضين بالحكمة والحسنى وان انتقادات النواب واجوبة الرئيس عليها نشرت في محضر جلسة مجلس النواب المذكورة اعلاه.
في يوم ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٢٩ كان الملك فيصل قد أولم وليمة على شرف مستشار الداخلية السيد كنهان كورنواليس بمناسبة ختام اجازته وعودته من لندن. وكنت مدعواً لهذه الحفلة ولكن اصابني زكام شديد منعني من الدوام الرسمي ومن الحضور في هذه الحفلة. وفي اليوم الثاني أي يوم ١٣ تشرين الثاني جاءني المرحوم عبد المحسن الى داري قبل غروب الشمس وسألني عن اسباب غيابي عن حفلة الملك ولما رآني مزكوماً عذرني واخذ يحدثني بما جرى له مع كورنواليس في حفلة الملك حيث انتحى به في ركن من اركان الصالون وكلمه عن السياسة العراقية البريطانية واخبره بانه عندما عاد للعراق شاهد تبدلاً كبيراً في سلوك الحكومة وسياستها وانه مستغرب هذا وان عبد المحسن اجابه بأنه قد تعب جداً من الركض وراء وعود الانكليز وعهودهم التي لم تلمس البلاد منها فائدة ترضي الشعب العراقي وان الانكليز حريصون على تنفيذ مطاليبهم وتحقيق مصالحهم.
اما مصالح الاخرين فلا يعيرونها ادنى اهتمام وقد طال البحث والجدل بينه وبين كورنواليس تقريبا ساعة. وفي الاخير صرح كورنواليس بان السياسة الانكليزية لم تتبدل ولايوجد في الوزارة الانكليزية اية نية لتغيير سياستها في العراق الان.. وقال السيد عبد المحسن السعدون وبعد هذه التصريحات التي سمعتها من كورنواليس فارقته ولم ارد عليه وعند خروجي من الصالون مررت على الملك فسلمت عليه واخبرته بما دار بيني وبين كورنواليس من الابحاث وما صرح لي به واظهرت له انزعاجي ما سمعته وقلت له (ان كل ما نرجوه من الانكليز هو خيال وليس له ظل من الحقيقة).. ولم يبق لي امل في تغيير سياستهم في العراق وخرجت من البلاط وانا متأكد ان الانكليز يخادعوننا ولا يعطون مجالاً للخدمة الصحيحة. ولقد لاحظته عندما كان يتكلم متأثراً جداً وعلى وجهه علامات الاضطراب والكآبة والانفعال.. فأخذت أسليه بأننا انما نعمل واجبنا في خدمة بلادنا على قدر طاقتنا واننا عندما نلاقي العراقيل والمخالفات والاكاذيب من الانكليز نترك الحكم لهم وللملك يتصرفون به كيفما يشاؤون ويجنون العواقب الوخيمة بيدهم ثم نهض وعليه اثار الانزعاج والتألم فقلت له لا يستعجل بالخروج لكي نستمر في الموضوع فرفض وقال انه يريد الذهاب الى النادي، فطلبت منه ان يشرب القهوة التي وصلت الى باب الغرفة فلم يتوقف وكان مطأطئ الرأس لا يلتفت يمنة ولا يسرة.. فلحقت به الى باب الدار فلم يتكلم بشيء وانما رفع كلتا يديه للسلام بدون كلام وقال لي حامل القهوة الذي صادفه في الباب وجهاً لوجه بأنه رأى عينيه مغرورقتين بالدموع.
بعد خروج عبد المحسن من داري ذهب الى النادي العراقي في محلة السنك

عبد المحسن السعدون

حينما علم الانكليز بمنهاج الوزارة اخذوا يعارضون بكل شيء ويطلبون من الوزارة تنفيذ المستحيلات كتمديد عقود الانكليز او تجديدها وترفيع بعضهم وتبديل وتغيير بعض الموظفين العراقيين ومدراء الادارة او مأموري المالية.
وصاروا يعاكسون الادارة، بكل شيء والوزارة تقابل اعتراضاتهم بصبر وحكمة وصارت امور الدولة المهمة بين المد والجزر.. فدار الاعتماد من جهة، والوزارة من جهة اخرى، والملك بينهما يعاني الصعوبات ومقابل ذلك كله الشعب الذي يطلب المزيد من الاستقلال ، وفعلاً سارت الوزارة في تنفيذ خطتها بدون تردد..

وبقي هناك ساعة او اكثر ثم رجع الى البيت وفي الساعة التاسعة من تلك الليلة جاءني الطباخ مبروك مرتعداً وهو يقول ان الحارس اخبره بمقتل السعدون.. فقمت مسرعاً الى داره في البتاويين التي كانت بالقرب من داري فرأيت الشرطي العريف في الباب وهو يبكي واشار الي بأن الحادثة وقعت في الطابق الثاني فصعدت مهرولاً فوجدت زوجته وبنته عائدة ينوحان واشارا اليه فاذا به ملقى على فراشه جثة هامدة فتقربت منه وشاهدت صدره مثقوباً من جهة قلبه بطلقة مسدس. فسألت مدهوشاً فأجابتني عائدة بأنه هو الذي ضرب نفسه وهذا هو مسدسه.

ولما ايقنت بمفارقته الحياة تألمت ألماً شديداً ونزلت الى غرفته (المكتبة) وجلست على كرسي امام طاولة الكتابة وانا متأثر جداً وتلفنت الى رئيس الصحة والاطباء واخبرت الوزراء، عن الحادث.. ثم نظرت الى الطاولة فوجدت عليها كثيراً من الاوراق الرسمية، وقد لفت نظري كتاب مفتوح موضوع فوق الاوراق فأخذته وقرأته واذا به كتاب وصيته الخالدة.. (الامة تطلب الخدمة والانكليز لايوافقون) وبعد ان اجهشت في البكاء طويته ووضعته في جيبي ثم أخذ الوزراء والنواب ورجال البلد يتوادون على الدار ويتساءلون فيما بينهم عن اسباب الانتحار وكان ياسين الهاشمي والسويدي وانا مجتمعين في غرفة من البيت واخذ الهاشمي والسويدي فيما بينهما يتساءلان عن اسباب الانتحار ويستعرضان وينتحلان بعض الاسباب الخارجة عن الموضوع تماماً..

فحين ذلك قلت لهم صبراً عندي اسباب الانتحار الحقيقية، واخرجت لهما ورقة الوصية من جيبي فأخذ كل واحد منهما يقرأها ويبكي. وقلت ان سبب تأخير عرضها عليكما هو رغبتي في حضور اكبر عدد من الزملاء والاصدقاء خشية ضياعها.. وعندها شكروني وقرروا نشرها حالاً فامتنعت عن اعطائها لأحد واخيراً تقدم صاحب جريدة العالم العربي سليم حسون وتعهد بنشرها ثم حفظها من الضياع واعادتها لي في الليلة عينها. فطلبت من الوزراء الذين كانوا حاضرين ان يوقعوا على نفس الورقة فوقعوا عليها جميعاً فسلمتها الى سليم حسون مقابل تعهد خطي على ان يعيدها لي حالاً..

وبعد ان نشرها اعادها لي وسلمتها بيدي لزوجته وأوصيتها ان تحتفظ بها للتاريخ.. واتماما للفائدة انشر في ختام هذا الباب نص الوصية.

وبعد هذه الفاجعة بيومين طلبني الملك فيصل الاول واطلعني على كتاب من دار الاعتماد البريطاني شديد اللهجة كاحتجاج على نشر وصية عبد المحسن السعدون ويتطرق الى وصف الهياج العام الذي حصل بنتيجة النشر واخلاله بالهدوء والطمأنينة، وفي ختام الكتاب يطالبون الملك بمعاقبة المسببين للنشر.

فبعد ان أتممت قراءة الكتاب قلت للملك اني انا الذي عثرت على هذه الوصية، وانا الذي اعطيتها للنشر ولايوجد مسؤول عنها وعن نتائجها سواي.. فقال لو تريثت قليلا الى ان نطلع على الوضعية لكان احسن للمصلحة ولحفظ الامن والاستقرار.

وبعد ثلاثة ايام كلف المرحوم ناجي السويدي باعادة تأليف الوزارة بعينها فتألفت من اعضائها السابقين بزيادة السيد خالد سليمان لوزارة الري والزراعة وتبدل طفيف في المناصب.. وسارت تلك الوزارة على المنهاج الذي كانت وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون سائرة عليه.

وبعد اربعة اشهر حدثت قضية الاستغناء عن قسم من المفتشين الاداريين فاصطدمت مع الانكليز واستقالت وكلف نوري السعيد بتأليفها كما هو معروف في تاريخ الوزارات.

وصية رئيس وزراء الحكومة العراقية
المرحوم عبد المحسن السعدون
النص التركي الاصلي
ايكي كرزم يا وروم مدار استنادم علي.
ارتكاب ايتديكم جنايكم جنايتدن طولابي بني عفو ايت. زيرا بو حياتدن بقدم اوصاندم حياتمدن نه لذت، نه ده ذوق شرف كوردم. امت خدمت بكليور ، انكليزلر موافقت ايتميور ، ظهير يوقدر، استقلال ايستيان عراقليلر ضعف عاجز استقلالدن جوق اوزاق، بنم كبي نامرسلي انسانلراك نصايحي تقدير دون عجز بني وطنه خائن. انكليز بنده سي ظن ايديورلر.
نه بيوك فلاكت بن وطنك ان مخلص بر فدائيسييم هردرلر حقار تلره قاتلاندم مذلتلره تحمل ايتدم صرف اباء واجد ادمك مرفها يشاد قلرى بومبارك بقعه ايجرندر. ياورروم صوك نصيحتم بودركه:
(١) يتيم قاله جق اوفاجق قاردا شلرينه مرحمت (والده نه حرمت) وطنه صداقت (٢) ملك فيصل وذريته صداقت مطلقه، بني عفو ايت ياوروم علي.
عبد المحسن السعدون

وهوذا التعريب الحرفي الصحيح للنص التركي للوصية.
ولدي وعيني ومستندي علي.
اعف عني لما ارتكبته من جناية، لاني سئمت هذه الحياة التي لم اجد فيها لذة وذوقاً مشرفاً. الامة تنتظر الخدمة، والانكليز لايوافقون، ليس لي ظهير..العراقيون طلاب استقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون كثيرا عن الاستقلال، وهم عاجزون عن تقدير نصائح ارباب الناموس امثالي.. يظنون اني خائن للوطن، وعبد للانكليز، ما اعظم هذه المصيبة انا الفدائي الاشد اخلاصاً لوطني.. قد كابدت انواع الاحتقارات وتحملت المذلات في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها ابائي واجدادي مرفهين.
ولدي نصيحتي الاخيرة لك هي:
(١)ان ترحم اخوانك الصغار الذين سيبقون يتامى وتحترم والدتك وتخلص لوطنك.
(٢) ان تخلص للملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً.
اعف عني يا ولدي علي.

التوقيع
عبد المحسن السعدون

وصية رئيس وزراء الحكومة العراقية
المرحوم عبد المحسن السعدون
النص التركي الاصلي
ايكي كرزم يا وروم مدار استنادم علي.
ارتكاب ايتديكم جنايكم جنايتدن طولابي بني عفو ايت. زيرا بو حياتدن بقدم اوصاندم حياتمدن نه لذت، نه ده ذوق شرف كوردم. امت خدمت بكليور ، انكليزلر موافقت ايتميور ، ظهير يوقدر، استقلال ايستيان عراقليلر ضعف عاجز استقلالدن جوق اوزاق، بنم كبي نامرسلي انسانلراك نصايحي تقدير دون عجز بني وطنه خائن. انكليز بنده سي ظن ايديورلر.
نه بيوك فلاكت بن وطنك ان مخلص بر فدائيسييم هردرلر حقار تلره قاتلاندم مذلتلره تحمل ايتدم صرف اباء واجد ادمك مرفها يشاد قلرى بومبارك بقعه ايجرندر. ياورروم صوك نصيحتم بودركه:
(١) يتيم قاله جق اوفاجق قاردا شلرينه مرحمت (والده نه حرمت) وطنه صداقت (٢) ملك فيصل وذريته صداقت مطلقه، بني عفو ايت ياوروم علي.
عبد المحسن السعدون

وهوذا التعريب الحرفي الصحيح للنص التركي للوصية.
ولدي وعيني ومستندي علي.
اعف عني لما ارتكبته من جناية، لاني سئمت هذه الحياة التي لم اجد فيها لذة وذوقاً مشرفاً. الامة تنتظر الخدمة، والانكليز لايوافقون، ليس لي ظهير..العراقيون طلاب استقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون كثيرا عن الاستقلال، وهم عاجزون عن تقدير نصائح ارباب الناموس امثالي.. يظنون اني خائن للوطن، وعبد للانكليز، ما اعظم هذه المصيبة انا الفدائي الاشد اخلاصاً لوطني.. قد كابدت انواع الاحتقارات وتحملت المذلات في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها ابائي واجدادي مرفهين.
ولدي نصيحتي الاخيرة لك هي:
(١)ان ترحم اخوانك الصغار الذين سيبقون يتامى وتحترم والدتك وتخلص لوطنك.
(٢) ان تخلص للملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً.
اعف عني يا ولدي علي.

التوقيع
عبد المحسن السعدون

وصية رئيس وزراء الحكومة العراقية
المرحوم عبد المحسن السعدون
النص التركي الاصلي
ايكي كرزم يا وروم مدار استنادم علي.
ارتكاب ايتديكم جنايكم جنايتدن طولابي بني عفو ايت. زيرا بو حياتدن بقدم اوصاندم حياتمدن نه لذت، نه ده ذوق شرف كوردم. امت خدمت بكليور ، انكليزلر موافقت ايتميور ، ظهير يوقدر، استقلال ايستيان عراقليلر ضعف عاجز استقلالدن جوق اوزاق، بنم كبي نامرسلي انسانلراك نصايحي تقدير دون عجز بني وطنه خائن. انكليز بنده سي ظن ايديورلر.
نه بيوك فلاكت بن وطنك ان مخلص بر فدائيسييم هردرلر حقار تلره قاتلاندم مذلتلره تحمل ايتدم صرف اباء واجد ادمك مرفها يشاد قلرى بومبارك بقعه ايجرندر. ياورروم صوك نصيحتم بودركه:
(١) يتيم قاله جق اوفاجق قاردا شلرينه مرحمت (والده نه حرمت) وطنه صداقت (٢) ملك فيصل وذريته صداقت مطلقه، بني عفو ايت ياوروم علي.
عبد المحسن السعدون

وهوذا التعريب الحرفي الصحيح للنص التركي للوصية.
ولدي وعيني ومستندي علي.
اعف عني لما ارتكبته من جناية، لاني سئمت هذه الحياة التي لم اجد فيها لذة وذوقاً مشرفاً. الامة تنتظر الخدمة، والانكليز لايوافقون، ليس لي ظهير..العراقيون طلاب استقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون كثيرا عن الاستقلال، وهم عاجزون عن تقدير نصائح ارباب الناموس امثالي.. يظنون اني خائن للوطن، وعبد للانكليز، ما اعظم هذه المصيبة انا الفدائي الاشد اخلاصاً لوطني.. قد كابدت انواع الاحتقارات وتحملت المذلات في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها ابائي واجدادي مرفهين.
ولدي نصيحتي الاخيرة لك هي:
(١)ان ترحم اخوانك الصغار الذين سيبقون يتامى وتحترم والدتك وتخلص لوطنك.
(٢) ان تخلص للملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً.
اعف عني يا ولدي علي.

التوقيع
عبد المحسن السعدون

وصية رئيس وزراء الحكومة العراقية
المرحوم عبد المحسن السعدون
النص التركي الاصلي
ايكي كرزم يا وروم مدار استنادم علي.
ارتكاب ايتديكم جنايكم جنايتدن طولابي بني عفو ايت. زيرا بو حياتدن بقدم اوصاندم حياتمدن نه لذت، نه ده ذوق شرف كوردم. امت خدمت بكليور ، انكليزلر موافقت ايتميور ، ظهير يوقدر، استقلال ايستيان عراقليلر ضعف عاجز استقلالدن جوق اوزاق، بنم كبي نامرسلي انسانلراك نصايحي تقدير دون عجز بني وطنه خائن. انكليز بنده سي ظن ايديورلر.
نه بيوك فلاكت بن وطنك ان مخلص بر فدائيسييم هردرلر حقار تلره قاتلاندم مذلتلره تحمل ايتدم صرف اباء واجد ادمك مرفها يشاد قلرى بومبارك بقعه ايجرندر. ياورروم صوك نصيحتم بودركه:
(١) يتيم قاله جق اوفاجق قاردا شلرينه مرحمت (والده نه حرمت) وطنه صداقت (٢) ملك فيصل وذريته صداقت مطلقه، بني عفو ايت ياوروم علي.
عبد المحسن السعدون

وهوذا التعريب الحرفي الصحيح للنص التركي للوصية.
ولدي وعيني ومستندي علي.
اعف عني لما ارتكبته من جناية، لاني سئمت هذه الحياة التي لم اجد فيها لذة وذوقاً مشرفاً. الامة تنتظر الخدمة، والانكليز لايوافقون، ليس لي ظهير..العراقيون طلاب استقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون كثيرا عن الاستقلال، وهم عاجزون عن تقدير نصائح ارباب الناموس امثالي.. يظنون اني خائن للوطن، وعبد للانكليز، ما اعظم هذه المصيبة انا الفدائي الاشد اخلاصاً لوطني.. قد كابدت انواع الاحتقارات وتحملت المذلات في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها ابائي واجدادي مرفهين.
ولدي نصيحتي الاخيرة لك هي:
(١)ان ترحم اخوانك الصغار الذين سيبقون يتامى وتحترم والدتك وتخلص لوطنك.
(٢) ان تخلص للملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً.
اعف عني يا ولدي علي.

التوقيع
عبد المحسن السعدون

كلمتي عن المرحوم عبد المحسن السعدون

لقد تعرفت على اخوان عبد المحسن الاجلاء (عبد الرزاق ومحمد وعبد الهادي وعبد العزيز وحمد وحامد وعبد الكريم وعبد الحميد اولاد فهد العلي الثامر السعدون) قبل ان اتعرف على اخيهم عبد المحسن الذي تعرفت عليه عندما انتخب نائباً عن لواء المنتفك في العهد العثماني وقد أحببته لاخلاقه الفاضلة وحسن معاشرته وسلوكه مع الناس ولم اشاهده بعد ذلك الا عندما اصبح وزيراً للعدلية في وزارة النقيب الثانية.. في ذلك التاريخ انتقلت من متصرفية كربلاء الى متصرفية المنتفك على عهد وزير الداخلية المرحوم توفيق الخالدي وما يجدر ذكره اثناء اشتغالي بمتصرفية المنتفك لم يكلفني عبد المحسن السعدون بأمر شخصي او يخص عائلته الكثيرة مع ان اشغالهم وقضايا اراضيهم هناك كثيرة جداً.. ثم اشتغلت بمعيته عندما انتقلت الى مديرية الداخلية العامة فاطلعت على مزاياه اكثر من قبل وقد اطلعت على مكارم اخلاقه وكرمه الذي لم أر مثيلا له فكان يوزع رواتب الى الموظفين الذين استغنت الحكومة البريطانية عنهم في دور الاحتلال وكان لهؤلاء دفتر خاص يحتفظ به كاتبه الخصوصي عبد النبي افندي وكانوا يتجاوزون الخمسين موظفاً ومن جملة هؤلاء الرجل الذي ضربه بسكين على رأسه عندما كان يصعد سلم رئاسة الوزراء في عام ١٩٢٦ فصفح عنه وتنازل في المحكمة عن حقه.

ذكر لي المرحوم يوما حادثا اطلع عليه وهو من الغرابة بمكان وهو ان عبد المحسن اخذ القطار يوما من احدى المناطق الادارية اثناء الليل ولعدم وجود درجة اولى ركب في احدى مقصورات الدرجة الثانية وكان فيها رجل وزوجته نائمين ولتحاشي ازعاجهما اخذ السعدون الفراش العلوي ونام فيه. وعلى اثر تململ السعدون في فراشه استيقظ رفيقاه في القمارة فاخذ الزوج وزوجته يتحادثون عن الاعمال التي قاما بها في القضاء وهما يتفاخران بها ويذكران القاصة التي سرقها الزوج وجميع السيئات التي ارتكبوها بهذا المحل وكان السعدون يسمع ذلك كله وعند الصباح وصل القطار الى المحطة وترك السعدون المقصورة واخذ حقيبته بعد ان عرف الرجل الذي في المقصورة وزوجته.. وفي اليوم الثاني جاء الرجل المذكور لوزارة الداخلية وبيده عريضة يحتج فيها على تنحيته من القضاء فعندما شاهد الوزير انتبه الى انه هو رفيقه في المقصورة فخجل وترك عريضته على منضدة الوزير طالبا الرحمة والصفح والغفران فاعفاه السعدون على شرط ارجاع القاصة التي سرقها حالاً الى الحكومة.

لقد عرفت السعدون عفيفاً نظيفاً كريماً حريصاً على مصلحة البلاد رحيماً بالفقراء دمث الاخلاق متواضعاً طيب القلب صافي السريرة وطنياً مخلصا لبلاده ووطنه ولكنه لايحب الدعاية والتهريج، يخدم بلاده بصمت وينظر الى امور السياسة نظرة بعيدة ويتقدم في اعماله بخطوات وئيدة ولكنها صائبة ولايحب الظهور ويمقت الخطب الرنانة والكلام الكثير وقد كانت خدمته لبلاده في ظروف حرجة وفي اثناء حكم مختلط وفي بدء عهد الاستقلال ، ولذلك كانت الخدمة صعبة تحتاج الى تضحية وصبر وصدر رحب يتقبل نقد المعارضين وحتى سباب المتطرفين وتقريعهم دون غضب او زعل بل كان يقدرهم لانهم لايقدرون ظروفه ومشاكله ويصفح عنهم بل ينعم عليهم ومن جهة اخرى يتمسك بالنقاط الصائبة من اقوال المعارضين وآرائهم فيجعلها حجة له في محادثاته ومجادلاته مع سلطات الاحتلال البريطاني فيستفيد من آراء خصومه لخدمة بلاده وقد كان في امكانه ان يضرب ويسجن ويعتقل ولكنه لم يفعل فاحتمل وصبر وصابر الى ان ضاقت به الحيل فأنهى حياته بيده الكريمة رحمه الله تعالى واكرم مثواه.

عن كتاب من ذكرياتي
للراحل عبد العزيز القصاب

يقول أمين المميز في كتابه " بغداد كما عرفتها " على الصفحة 57 بخصوص شارع الرشيد ما يأتي : " أذكر بغداد يوم أمر الوالي خليل باشا بفتح الشارع الذي سمي بادئ الأمر باسمه (خليل باشا جاده سي) ... وعملت المعاول ليلاً على هدم دور وحوانيت الحيدرخانه وأسواق باب الأغا على رؤوس ساكنيها ... حتى إذا أصبح الصباح كان منظر البيوت وأثاثها المبعثرة والدكاكين وبضائعها المتناثرة ، مشهداً يدمي القلوب ويفتت الأكباد وليس في بغداد من يصغي إلى شكاواهم وتظلماتهم ... " .

... لقد بدأ ذلك الفعل يوم الاثنين الموافق 20 آذار من سنة 1916 . وقد استؤنف العمل بالهدم من جديد نهار الخميس 11 أيار من سنة 1916 . وفي نهار الأحد العشرين من آب من تلك السنة جرت مراسيم افتتاح الجاده ، إذ تم نقش اسم خليل باشا على قاعدة منارة جامع السيد سلطان علي يوم الخميس الواقع في 19 تشرين الأول من سنة 1916 .

وقد استمر هدم البيوت والحوانيت إلى أواخر آذار سنة 1917 أي بعد الاحتلال الانكليزي لمدينة بغداد ببضعة أيام (تم احتلال بغداد يوم 11 آذار من سنة 1917) .

معن عبد القادر آل زكريا

تأريخ أرقام السيارات الخصوصي في بغداد (أيام زمان)

وفي سنة ١٩٢٠ أرادت حكومة النقيب توسيع الجاده الحالية إلى ما مقدار عرضه ٣٠ متراً لتسوية اعوجاجها . وقد أخذ المهندسون يتفاوضون في أي جانب من الجاده يجب هدمه ، إذ تبرز في سبيلهم عقبتان ... فإن هدموا الجانب الواقع إلى طرف النهر يشخص أمامهم جامع السيد سلطان علي ، فضلاً عن عمران تلك الجبهة . وإن هدموا الجانب الآخر وهو أقل عمراناً ، فيعرقل سبيلهم جامع مرجان ويحول دون بلوغ الأبنية المراد هدمها .

ساهم إنجاز مشروع شارع الرشيد " شارع يشق العاصمة بغداد طولاً من شمالها إلى جنوبها " ... نقول ساهم في فتح الأبواب على مصاريعها أمام تدفق وسائل التمدن ، ومنها إنشاء الأبنية الحديثة على جانبيه ، ومنها استيراد السيارات من مناشئها الأوروبية والأميركية في فاتحة العشرينيات من القرن الماضي .

ثم جاء التوسع الأخير (للشارع الجديد) الاسم الذي أطلقته عليه سلطات الاحتلال الانكليزية ، ثم صار اسمه الثالث والأخير شارع الرشيد كما هو باق إلى غاية تاريخه ... نقول جاء التوسع الأخير ليعين على إعماره من جانبيه ، يوم كان نشأت السنوي أمينا للعاصمة (١٩٣٠ – ١٩٢٥) .

وبادئ ذي بدء ، فقد جرى التبليط بتعديل الشارع ومن ثم فرش الرمل والحصى الناعم، ليتم وضع المشبك الحديد (BRC) ، بعدها جاء دور التبليط بالشوبك المصنوع من الخشب والمدهون بالنفط الأسود كي لا تلتصق ذرات الرمال بالقير الأسود .

وقد أخذت عملية التبليط أشهراً عدة ... وكان من ضحايا تبليط شارع الرشيد أمين العاصمة نفسه ، الذي تم نقله إلى مكان آخر (في حومة عملية الإعمار) لسبب ظل مجهولاً إلى زمن طويل بعد وقوعه .

وبانتهاء عملية التبليط ، صار شارع الرشيد المتنزه الأمثل لأهالي بغداد ، وعلى نحو خاص سكان الكرخ الذين جاءوا عبوراً إلى الجهة الشرقية من بغداد ، وقاموا يحجزون لهم أماكن جلوس على أطراف المقاهي الكثيرة المنتشرة على جانبي الشارع عصر كل يوم للتفرج على الناس الرائحين والغادين ، فضلاً عن قيام كثير من الفضوليين بانتظار قدوم عربات الغانيات من محلة الميدان شمال بغداد متجهات إلى الباب الشرقي في الجنوب ... مروراً بشارع الرشيد على طوله ، وأغلبهنّ يركبنَ سيارات فارهة مكشوفة (أم التنتا) أو يمتطين العربات ام الربل التي يجرها جوادان ويقودها حوذي (عربة نجي) من أهل الكار أولئك الذين دخلوا ذلك التاريخ من أوطأ أبوابه لما معروف عنهم من سوء الخلق ، أقول تمر الغانيات وهنّ في غالبيتهنّ من ذوات الجمال والأبهة التي تحسدهنّ عليها كثير من نساء بغداد غاويات التقليد ...!!

جادة خليل باشا :

يقول علي الوردي في كتابه " لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث " الجزء الرابع ، من عام ١٩١٨-١٩١٤ والمطبوع سنة ١٩٧٤ وعلى الصفحات ٣٠٦-٣٠٢ ما يأتي :

" لم يكن في بغداد – في العهد العثماني – شارع مبلط واحد ، بل كانت فيها أسواق مسقوفة ودروب وأزقة يتصل بعضها ببعض ببناء متهالك . وكان أول شارع في بغداد ، هو شارع النهر الذي قام بفتحه ناظم باشا سنة ١٩١٠ . ذلك في الواقع لم يكن شارعاً لشدة ضيقه وعدم استقامته ... بل هو إلى الزقاق أقرب منه للشارع " .

وتقول الروايات ، أنه لما حقق خليل باشا الانتصارات المتتالية ، ومنها انتصاره الشهير على القوات البريطانية في الكوت ، فقد آل على نفسه إلا أن يقرن ذلك الانتصار باسمه الذي سيؤرخ في شارع من شوارع بغداد . وأراد خليل باشا أن يكون الشارع ممتداً على طول بغداد من شمالها (باب المعظم) وإلى جنوبها (الباب الشرقي) وعلى طول موازاة نهر دجلة .

يكمل علي الوردي روايته بشأن فتح الشارع قائلاً : " المظنون ، أن هناك ثلاثة عوامل دفعت خليل باشا إلى فتح الشارع على تلك الدرجة من الاهتمام وهي :

1. العامل العسكري :

لقد كانت متطلبات الحرب تقضي بفتح الشارع لتسهيل مرور المدافع والمعدات الحربية من بغداد إلى الجبهة ، وكان الطريق يدور حول المدينة ، الأمر الذي أدى بالجنود إلى معاناة شديدة من شدة الحر صيفاً ومشقة الأوحال شتاءً .

2. العامل المالي :

لقد اقتنع الحكام بالنظرية التي مفادها أن شق الشوارع في زمن السلم يكلف الدولة أموالاً طائلة من أجل تعويض الأهلين (أصحاب الدور المهدومة) عن أثمان عقاراتهم ، أما في زمن الحرب ، فالأمر لا يكلف الدولة من الأموال إلا أقلها ، فهي تستطيع أن تعوض أصحاب الدور بسنداتٍ تدفع بعد انتهاء الحرب ... ولم يكن أصلاً في مقدور أي واحد الاعتراض على تلك الأوامر ...!

3. العامل الشخصي :

لقد كانت (المودة) الشائعة بين حكام الولايات العثمانية في تلكم الحقبة ، التنافس والتباهي بفتح الشوارع . لقد كان كل واحد منهم يريد أن يفتح شارعاً في مدن ولايته بحجة إعمار البلاد ... لكن كل واحد ، أراد من وراء ذلك – في دخيلة نفسه – إطلاق اسمه على الشارع المفتتح ... ويخلد ذكره في التاريخ اللاحق .

يقول علي الوردي :

" لقد ابتدأ العمل بفتح (شارع خليل باشا – الشارع الجديد – شارع الرشيد) من شهر أيار (مايس) ١٩١٦ ، عندما قام رؤوف بك الجادرجي باستدعاء أصحاب الدور التي سيخترقها الشارع – على وفق التخطيط والتصميم – واتفق معهم على ان يدفع لهم مبلغاً مقدماً يعادل مقدار مبالغ إيجارات دورهم لمدة سنة واحدة ... على أمل أن يعود فيفاوضهم في سبيل شرائها كاملة بعد انتهاء الحرب .

ثم ابتدأ رؤوف بك بتطبيق مخططه فقام بدفع المبالغ (بالنقود الورقية المطبوعة) ... الأمر الذي أدى إلى انتشار التذمر الشديد بين ذوي العلاقة .

يقول كامل الجادرجي (شقيق رؤوف الجادرجي) في مذكراته ... الآتي :

وقد سبب قرار شقيقي رؤوف وتصرفه ذلك استياءً بالغاً لدى أصحاب العلاقة وغيرهم، واعتبروا رؤوفاً مسؤولاً عنه.

يكمل كامل الجادرجي قائلاً : وكان والدي أيضاً من ضمن المستائين من تصرفات رؤوف ، وإن كان قد استفاد من فتح الشارع استفادة مادية ، بعد أن أصبحت لدارنا (آل الجادرجي) جبهة طويلة ومهمة على الشارع العام .

ويعود علي الوردي إلى وصف حالة مشروع

افتتاح الشارع والمشاكل التي تسببت عنه قائلا : إن هناك أسباباً أخرى لانتشار التذمر بين الناس ، هو ان موظفي البلدية ، فضلاً عن مهندسيها ، يتأثرون بالمحسوبية وبالوساطة وبالرشوة ، حالهم حال جل موظفي السلطنة ، فصاروا يغيرون في تخطيط الشارع حسبما توحي به تلك الدوافع .

يقول عبد الكريم العلاف وهو من معاصري تلكم الحقبة في كتابه- بغداد القديمة- الصادر سنة ١٩٦٠ وعلى الصفحة ٢٤١ ما يأتي :

" ولما شرعوا في فتحه ظلموا كثيرين من الناس وجاروا على الضعيف ... والذين قدروا أن يرشوا من بيده الأمر وجد لهم ألف عذر لعدم هدم داره والتعرض لها

يعود علي الوردي إلى وصف هدم الدور ما يأتي : " الواقع ان شق الشارع كان يجري بطريقة عجيبة . فقد يأتون بحبلين طويلين ويمدانهما فوق سطوح المنازل لتحديد مساحة الشارع بواسطة هذين الحبلين . ويقال ان مرور أحد الحبلين فوق أحد الدور معناه نزول الكارثة على أهل تلك الدار ، فتسمع العياط والعويل ... فيسرع المتمكن من أصحاب الدور إلى استشارة أهل الحل والتفتيش عمن يساعده على إزاحة الحبل عن داره لقاء رشوة . وكثيراً ما كان الحبل يتحول من منزل إلى آخر حسب مبلغ الرشوة التي تدفع أو النفوذ المستخدم ... لقد كانت مهزلة تدعو إلى البكاء والضحك معاً ...!!

يستمر الوردي واصفاً بعض الإشكالات التي واجهت المسؤولين في قضية الاستملاكات وهي هنا تختلف نوعاً ما عن تلك الإشكالات التي ذكرها أمين المميز ... يقول الوردي :

" لما وصل الشارع إلى محلة الحيدرخانة واجه المسؤولون مشكلة عويصة هي وجود سوق للأوقاف تعترض امتداد الشارع المقرر ، وان هدم السوق يؤدي إلى غضب رجال الدين في وقت كانت فيه الحكومة في أمسّ الحاجة إلى رضاهم . وفي هذا الخصوص يقول الرواة ان رؤوف بك الجادرجي تصرف في هذه النقطة تصرفاً رجولياً متحملاً المسؤولية وحده ، إذ استطاع أن يحشر عمالاً كثيرين ، وجاء بهم إلى العمل ليلاً ، فأخذوا يهدمون السوق خلسة ، ولما أشرقت شمس اليوم التالي وجد الناس أنفسهم أمام الأمر الواقع ... ولم ينبس أحد من رجال الدين ببنت شفة ...!! " .

يقول المؤرخ عباس العزاوي في كتابه -العراق بين احتلالين- الجزء الثامن وعلى الصفحة ٢٩٤ ما يأتي :

لقد جرى الاحتفال بافتتاح الشارع يوم ٢٣ تموز سنة ١٩١٦ (ذكرى إعلان الدستور) وقد أطلق عليه اسم (خليل باشا جادة سي) كما ذكرنا في مكان سابق من بحثنا ، وقد كتب هذا الأسم على قطعة من الكاشي القاشان وضعت على جدار في جامع السيد سلطان علي .

وبعد أن تم افتتاح الشارع ، ظل حتى يوم سقوط بغداد في ١١ آذار سنة ١٩١٧ (أي ما يقارب سبعة أشهر) وهو مليء بالحفر يعلوه التراب ، فلم يهتم المسؤولون بتسوية أرضه أو تبليطه ... بل كانت الدور المهدمة على الجانبين وأصحابها ما يزالون يسكنونها وقد علقوا بعض العباءات أو الستائر لحجب أنظار المارة عنهم منظراً ما زال يذكره بالسوء الكثير من الذين عاصروا تلكم الحقبة .

ومن الجدير بالذكر أنه لما كانت بغداد على وشك السقوط غادرها رؤوف بك الجادرجي إلى استانبول ومنها إلى برلين بحجة الاطلاع على التقنيات الإدارية والفنية للبلديات هناك ... لكن الآراء كانت متفقة على أنه خشي انتقام الناس منه في عهد السقوط لما عمله فيهم في العهد السابق . (وهنا تختلف رواية الوردي عن رواية أمين المميز ... إذ يقول الوردي ان الإنكليز هم الذين قاموا بالتبليط ، بينما يقول أمين المميز ان الحكومة - حكومة النقيب الأولى- هي التي أمرت بالتبليط).

ولم يكد الإنكليز يدخلون بغداد بعد فتحها حتى قاموا بتبليط الشارع لتسهيل مرور نقلياتهم وآلياتهم وجنودهم فيه ، فأطلقوا على الشارع اسم الشارع الجديد ز ومن الجدير بالذكر أن جزءاً كبيراً من بناية (شركة اللنج) الإنكليزية قد طاله الهدم على وفق رواية سليم طه التكريتي في كتابه المترجم عن الانكليزية تأليف العقيد (جيرالد دي غوري) الملحق العسكري في السفارة البريطانية في بغداد والموسوم " ثلاثة ملوك في بغداد " الطبعة الثانية والصادرة سنة ١٩٩٠ . إلا أن القطعة التي حملت اسم خليل باشا والتي كانت موضوعة على الباب الخارجي لمسجد (سيد سلطان علي) بقت ظاهرة للعيان حتى سنة ١٩٣٤ وقتما تم تجديد بوابة المسجد المذكور فرفعتها أمانة العاصمة من مكانها ثم صار أن تغير اسم الشارع إلى اسمه الجديد (شارع الرشيد) سنة ١٩٣٥ .

وقد حكى أحد الرواة من البغداديين أنه زار خليل باشا في أواخر عمره في استانبول فوجده مغموماً من تصرف أهل بغداد لحذف اسمه من على الشارع ، وكان شديد العتب عليهم في ذلك .

× × ×

أما التاكسيات ، فلم تبدأ العمل في الشارع حتى منتصف العشرينات ، وأولها سيارات (الفيات الإيطالية) صغيرة الحجم ، ثم صار إلى استيراد السيارات الأميركية والانكليزية والفرنسية متوسطة الحجم .

ومن ضمن الأمراض الاجتماعية التي ابتلي بها بعض أهل بغداد - جرّاء استيراد وسائل الملبس والمعيشة المودرن وافتتاح محلات البيع الراقية - فضلاً عن ابتلاء بعض الأهالي من الشرائح الاجتماعية الراقية ، هي احترامهم الزائد لأرقام السيارات الصغيرة نسبياً (المؤلفة من رقم واحد أو رقمين) ، بل تبجليها وتبجيل أصحابها ... كذلك كان يفعل رجال المرور وضباطه ، فضلاً عن رجال انضباط الشرطة (الشرطة العسكرية من الدوريات وسواهم) متوخين أن يكون أصحاب تلكم السيارات (ذوات الأرقام الصغيرة) من ذوي الوجاهة ومن شاغلي المناصب العالية في الدولة . وما زالت هذه العادة (هذا المرض) وإلى حدٍ ما جارية عند العراقيين .

نظرة معمّقة في موضوع أرقام السيارات:

أعود فأقول : ان السيارة رقم (١ بغداد) كانت من خاصية الحاج سليم خورشيد مدير الشرطة العام في بدايات العهد الملكي . وبعد وفاته انتقل الرقم إلى الزعيم (العميد) عبيد عبد الله المضايفي المرافق الأقدم للأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق. وأن السيارة رقم (٢ بغداد) كانت عائدة للتاجر اللبناني وكيل شركة فورد للسيارات جورج عابديني (شريك رشيد عالي الكيلاني) .. أما الرقم (٣ بغداد) فكان من خاصية رئيس الوزراء الأسبق في العهد الملكي علي جودت الأيوبي ، بعد أن انتقل إليه من السيد مزاحم ماهر مدير الشرطة العام ومتصرف لواء بغداد فيما بعد في العهد الملكي ، وهو الآن لدى آل خربيط (تجار وصناعيون من أهل الرمادي) . أما الرقم (٤ بغداد) فكان لنشأة السنوي أمين العاصمة في العهد الملكي .

والرقم (٥ بغداد) للوزير في العهد الملكي فخري الطبقجلي . والرقم (٦ بغداد) لرئيس الوزراء الأسبق في العهد الملكي جميل المدفعي . والرقم (٧ بغداد) لشهاب الدين الكيلاني . والرقم (٨ بغداد) للوزير جلال بابان في العهد الملكي . والرقم (٩ بغداد) لرشيد عالي الكيلاني. أما الرقم (١٠ بغداد) فكان لحسام الدين جمعة متصرف لواء الموصل ومتصرف لواء بغداد فيما بعد في العهد الملكي. أما الرقم (١٢ بغداد) فأصله عند ناجي الأصيل مدير الآثار العام في العهد الملكي ، والذي صار وزيراً للخارجية فيما بعد . ثم أنتقل إلى السيد عبد الجبار الراوي مدير الشرطة العام في العهد الملكي . وأن وصول الرقم للسيد الراوي له قصة كما تأتي : كان رقم السيارة (٤ عمارة) بحوزة جبوري العاني يوم سكن العمارة مؤقتاً في الأربعينات للعمل في تجارة الأغنام . ويوم أصبح عبد الجبار الراوي متصرفاً للعمارة ، قام السيد عبد القادر العاني (الأخ الأكبر لجبوري العاني) بإعطائه رقم (٤) عمارة وأخذ رقم (١٢) بغداد . وبعد إخفاق حركة الشواف في الموصل سنة ١٩٥٩ وذهاب عبد القادر العاني إلى بغداد ، طلب الرقم السيد عبد الجبار مهدي العزاوي ، ثم ان هذا الأخير باع السيارة إلى أسرة ناجي الأصيل ، التي استرجعته مرة أخرى ، ثم استعاده ابن أخ عبد القادر العاني وهو (عبد الهادي عبد الجبار العاني) واشتراه من إبنة ناجي الأصيل ، التي كانت قد وضعته على سيارة رينو ١٦ صفراء. وما يزال إلى الآن عند الحاج عبد الهادي في الموصل على سيارة بي أم دبل يو.

أما الرقم (١٤ بغداد) فمن خاصية النائب عن الموصل أنطوان شماس في العهد الملكي . كما أن الرقم (١٥ بغداد) يعود إلى التاجر والصناعي عبد المنعم الخضيري . ثم أخذه السيد احمد عبد الجبار كشمولة عندما كان مديراً لشرطة المرور العامة ، ومن ثم أهداه إلى المقاول الموصلي فالح مال الله الصفار وما يزال عند أسرته لحد اليوم ، أما الرقم (١٧ بغداد) فهو من خاصية سيارة رؤوف الجيبه جي . والرقم (١٨ بغداد) فيعود إلى ناجي شوكت رئيس وزراء أسبق في العهد الملكي .

ومن نافلة القول أن الرقم (٢٠ بغداد) قد بقي زمناً طويلاً من خاصية سيارة نوري السعيد ... وحتى الخامس عشر من تموز سنة ١٩٥٨ (يوم مقتل نوري السعيد وبعد يوم واحد من قيام الانقلاب) . أما الرقم (٢٢ بغداد) فعائد إلى رؤوف البحراني وزير مالية أسبق في العهد الملكي. والرقم (٢٣ بغداد) فكان من خاصية سيارة التاجر النجفي الثري عبد المحسن شلاش ووزير الاقتصاد في العهد الملكي .

ومن طريف ما يروى عن قصص أرقام السيارات ، ما حدث بعد الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ ، والانقلاب الحاصل في طبيعة تركيبة الطبقات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في المجتمع . فقد جاء أحدهم مبعوثاً إلى وزير الداخلية (عبد السلام عارف) راجياً منه إعادة رقم السيارة (٩ بغداد) إلى صاحبها الأصلي السيد رشيد عالي الكيلاني ، الذي ترك العراق لاجئاً إلى ألمانيا إثر إخفاق حركته الموسومة (حركة رشيد عالي الكيلاني) في مايس سنة ١٩٤١ . وأكد (الطالب المبعوث) على ضرورة سحب الرقم من مالكه (الجديد) الشيخ حسن السهيل (شيخ عشائر بني تميم) ...!!

وعودة منّا إلى حقبة ما قبل ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ نتذكر ونقول :

... بعد أن أصبح سعيد قزّاز وزيراً للداخلية في العهد الملكي ، تقدم مدير شرطة المرور عادل الوكيل بطلب إلى السيد جمال رفعت مدير الداخلية العام ... راجياً عرض الموضوع على السيد الوزير (القزّاز) راجياً منحه لوحة السيارة رقم (٩ بغداد) والذي تحمله سيارة الشيخ حسن السهيل (والذي هو بالأصل من خاصية السيد رشيد عالي الكيلاني) . فما كان من سعيد قزّاز إلا أن يرد بشيء من الانفعال الكردي المعروف عنه قائلاً : " أنا سعيد قزّاز ... إن كنت وزيراً أو غير وزير ، سواء حملت الرقم (٩) أو الرقم (مليون) ... فهذه الشكليات لا تزيد من قيمتي ولا تنقص منها " ... وأبقى على لوحة رقم سيارته القديمة .

وبعد أن استوزر العلاّمة منير القاضي في العهد الملكي ، الذي كانت لوحة سيارته تحمل الرقم (٧٢٦ بغداد) ، جاءه سائق سيارته الخاص يوماً ما راجياً ومتوسلاً تبديل رقم السيارة (برقم واحد أو برقمين) ... فردّ عليه منير القاضي قائلاً : " ابني لقد اعتدنا نحن على هذا الرقم ... فهل سيخف وزن السيارة أو يثقل إذا قمنا بتبديل الرقم ...؟! هذه ترّهات وسفاسف ....!"

ونجزم نحن، أن الدوافع وراء تحريض كثير من الشخصيات العراقية على اقتناء أرقام السيارات الصغيرة تأتي من الحواشي ، ويمكن أن نقيس على ذلك أن سائق سيارة العلاّمة منير القاضي كان يقصد التباهي بين أقرانه الشوفيريه أكثر من أي شيء آخر ...

وعودٌ منّا إلى الموضوع نفسه ، تقول أحداث التاريخ أن سعيد قزّاز لما صار متصرفاً للواء الكوت في العهد الملكي ، قام الموظفون الرسميون الحواشي من حوله في دوائر المرور بمنح سيارته رقم (١ كوت) . وبعد أن تم نقله إلى لواء الموصل ليكون متصرفاً هناك ... لحقه أحد الاقطاعيين المتنفذين قبل انفكاكه ، متوسلاً إليه الموافقة على التنازل عن رقم سيارته (١ كوت) فوافق القزّاز على الفور ... ثم قال مستدركاً : " كنت أظن أن الشيخ .... أعقل مما ظهر عليه "

وفي الستينيات من القرن الماضي ، تقدم العميد سعدي القره غولي بطلب إلى مدير إدارة الجيش بإعادة الرقم (١ بغداد) إليه ، كونه يعود بالأساس إلى الحاج سليم (والد زوجة القره غولي) والذي آل فيما بعد إلى اللواء عبيد عبد الله المضايفي - كما أسلفنا في مستهل مقالنا -. ثم قام اللواء القره غولي بتقديم طلبات أخرى إلى مديرية الأموال المجمدة - كما نصحه بعض المطلعين ، بحسب أن أموال الأسرة المالكة وحواشيها كانت مجمدة - طالباً منها إبداء الرأي بخصوص ذلك . فردّت عليه المديرية بكتاب رسمي ذكرت فيه أن أرقام السيارات ليست أموالاً ... ثم هي ليست مجمدة ، ولا يعود إليها البت في الموضوع ... وهكذا طوي الموضوع نهائياً . مع العلم أن رقم السيارة (١٧ بغداد) هو من خاصية السيد سعد عباس التميمي .

يقول كامل الجادرجي (شقيق رؤوف الجادرجي) في مذكراته ... الآتي :
وقد سبب قرار شقيقي رؤوف وتصرفه ذلك استياءً بالغاً لدى أصحاب العلاقة وغيرهم، واعتبروا رؤوفاً مسؤولاً عنه. يكمل كامل الجادرجي قائلاً : وكان والدي أيضاً من ضمن المستائين من تصرفات رؤوف ، وإن كان قد استفاد من فتح الشارع استفادة مادية ، بعد أن أصبحت لدارنا (آل الجادرجي) جبهة طويلة ومهمة على الشارع العام .
ويعود علي الوردي إلى وصف حالة مشروع افتتاح الشارع والمشاكل التي تسببت عنه قائلاً : إن هناك أسباباً أخرى لانتشار التذمر بين الناس ، هو ان موظفي البلدية ، فضلاً عن مهندسيها ، يتأثرون بالمحسوبية وبالوساطة وبالرشوة ، حالهم حال جل موظفي السلطنة

المدارس الرشدية في العراق

د. علياء محمد

كانت الخطوة الاولى التي اتخذتها الدولة العثمانية ، عندما أقدمت على تاسيس المدارس الرسمية إعطاء الاولوية للمدارس الرشدية على المدراس الابتدائية ، تاركة المدارس الاخيرة تعمل على وفق تعليمات المؤسسات الدينية القديمة والمتمثلة بالكتاتيب وتحت اشرافها .

وقد عزت المصادر التاريخية اسباب ذلك الى حاجة الدولة السريعة والملحة الى عدد ليس بالقليل من خريجي المدارس الرشدية (الملكية والعسكرية) للعمل في الدوائر المختلفة . فضلاً عن فقدان الامكانيات الفنية والمالية اللازمة لفتح المدارس الابتدائية .

وانقسمت المدارس الرشدية الى صنفين هما:-

أ - المدارس الرشدية الملكية (المدنية) :

نص نظام المعارف الصادر سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م على اقامة مدرسة رشدية في كل محلة او قرية يزيد عدد دورها على الخمس مئة دار سواء كان سكانها مسلمين أم غير مسلمين في حين حددت مادة اخرى مدة الدراسة فيها باربع سنوات . واكد القانون في مادة اخرى انه في حالة وجود اكثر من مئة دار سكن للمسيحين تفتح لهم مدرسة رشدية ايضاً .

وكما هو الحال بالنسبة لجميع انواع المدارس الموجودة في الولايات العراقية سارت المدارس الرشدية على القوانين والانظمة نفسها الصادرة عن نظارة (وزارة) المعارف في استانبول . وكان من شروط القبول في المدارس الرشدية قبل افتتاح المدارس الابتدائية ، ان يكون المتقدم قد وصل الى درجة متقدمة في المدارس الاسلامية التقليدية .وبعد افتتاح المدارس الابتدائية اصبح شرط انهاء الدراسة الابتدائية واحداً من شروط القبول في المدارس الرشدية .

اما عن مناهج الدراسة في هذه المدارس فاشتملت على دراسة عدد من المواد من بينها مبادئ العلوم الدينية وقواعد العربية وعلم الحساب واصول مسك الدفاتر والرسم ومبادئ الهندسة والتاريخ العام ، والتاريخ العثماني والجغرافية والرياضه .

وكانت اللغة التركية هي لغة التدريس لكافة المراحل الدراسية ومنها المدارس الرشدية.

في حين حددت المادة (٢١) من نظام المعارف الملاك التعليمي لهذه المدارس بمعلمٍ واحد او معلمين اثنين يجري تعينهم طبقاً لنظام المعلمين ، وعدا هؤلاء فلكل مكتب مبصر(×) واحد وبواب واحد . غير ان زيادة عدد الطلبة جعلت المسؤولين لايتقيدون بهذا الملاك .

يرجع الفضل الى مدحت باشا بتاسيس اول مدرسة رشدية ملكية في بغداد ، ابتدأت التدريسات فيها سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م . وكان الهدف من انشائها ان تنشئ طلاباً اتراكاً في اللسان والاتجاه . اعقبها افتتاح مدرسة رشدية ثانية في سنجق كركوك ، بالمساعدات المالية لاهالي المدينة حيث بلغ مجموع الطلبة المقبولين فيها (٨٠) طالباً . فيما ارخت مصادر اخرى افتتاح مدرسة رشدية في قضاء الحلة سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م .

اما بالنسبة لولاية الموصل فاستمرت الدراسة في الصفوف الرشدية التي ضمها (المكتب الابتدائي) -الذي سبقت الاشارة اليه .لتفصل الصفوف الابتدائية عن الرشدية ، ولتصبح المدرسة رشدية في سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م .

في حين تأخر ظهور مثل هذه المدارس في ولاية البصرة حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر بسبب افتقارها الى الملاكات التدريسية ، وحال قدوم احد المعلمين من العاصمة (استانبول) ، تم افتتاح اول مكتب رشدي في البصرة سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٣م .

الزم قانون المعارف ، مديريات المعارف بتأمين نفقات المدارس الرشدية . في الوقت الذي اضطلعت فيه دائرة الاملاك السنية (×) بافتتاح عدد من المدارس الرشدية في ولايتي البصرة وبغداد .

كما اسهم الاهالي في انشاء بعض المدارس الرشدية اذ كانت تجمع منهم الاموال اللازمة لبناء تلك المدارس وتعميرها .

دفعت حاجة الدولة المتزايدة لخريجي المدارس للعمل في الوظائف الحكومية الى زيادة الاهتمام بهذه المدارس والدليل على هذا الاهتمام ارتفاع اعداد المدارس الرشدية الى (٢٠) مدرسة سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م . ثم الى (٤٠) مدرسة رشدية سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م .

وقد توزعت على الشكل الاتي :-

- ١٩ مدرسة رشدية في ولاية بغداد ، بواقع (١١) مدرسة رشدية في مركز الولاية في حين توزعت البقية الباقية على لوائي كربلاء والديوانية واقضيتها الستة .

- ١٤ مدرسة رشدية في ولاية الموصل ، بواقع (٥) مدارس رشدية في لواء الموصل والاقضية التابعة له ، في حين كانت حصة لواء كركوك واقضيته (٩) مدارس رشدية .

-٧ مدارس رشدية في ولاية البصرة ، بواقع مدرستين رشديتين في مركز الولاية ، في حين كانت حصة لوائي العمارة والناصرية (٥) مدارس رشدية .

اما المدارس الرشدية الخاصة بالبنات ، فعلى الرغم من تاكيد قانون المعارف الصريح انشاء مثل هكذا مدارس الاان افتتاحها تاخر حتى سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ، حينما تم إفتتاح أول مدرسة للبنات في الموصل . اعقبها إفتتاح مدرسة رشدية في بغداد بجهود من والي بغداد نامق باشا (١٨٩٩ . ١٩٠٢) ، وبلغ مجموع طالباتها (٦٧) طالبة سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٠م ، ليرتفع العدد الى (٩٥) طالبة سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١م ، ثم الى (١٣٧) طالبة سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م .

اما الهيئة التعليمية لهذه المدارس . فقد كانت قليلة في عددها(×) فعلى سبيل المثال تألفت الهيئة التعليمية للمدرسة الرشدية للأناث في بغداد من(٣) معلمات ومبصرة واحدة . ومما يجدر ذكره ان المدارس الرشدية للاناث كانت تضم قسمين :-

الاول ابتدائي والثاني رشدي اما عن سنوات الدراسة فكانت ست سنوات ، فيما لم تختلف الدراسة في هذه المدارس عنها في مدارس الذكور باستثناء بعض الدروس في الفنون البيتية والاعمال اليدوية .

ب- المدارس الرشدية (العسكرية) :-

حظي التعليم العسكري بحيز كبير من أهتمام الدولة العثمانية ، إذ هدفت من خلاله تدريب الشباب وفق الاساليب والنظم العسكرية الحديثة ، لذلك بادرت الىتاسيس العديد من المدارس العسكرية (الرشدية والعسكرية) فضلاً عن المدارس العسكرية العالية قبل غيرها من المدارس المدنية في استانبول وبعض الولايات العثمانية الاخرى .

ففي سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٥م تم الايعاز الى مراكز الفيالق وبضمنها بغداد التي كانت مركزاً للفيلق السادس بضرورة تأسيس مدارس عسكرية فيها الان ظهور مثل هذه المدارس تاخر الى سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م وتحديداً خلال ولاية مدحت باشا ، اذ كانت فاتحة اعماله افتتاحه لاول مدرسة رشدية عسكرية حديثة في بغداد(×) وفي سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م جرى افتتاح مدرسة ثانية في بغداد ، الان المدرستين سرعان ما ادمجتا في مدرسة واحدة في العام نفسه ، امام الصعوبات المالية التي واجهتها . فيما ارخت مصادر اخرى افتتاح مدرسة اخرى في قضاء السليمانية التابع لولاية الموصل في سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م .

اما عن شروط التقديم لهذه المدارس فيبدو انها إتسمت ببعض المرونة ، فقد سمحت للمتخرجين من مدارس الصبيان (الكتاتيب) بالتقديم الى هذه المدارس ، ثم بعد ذلك لكل من يجيد تلاوة القران الكريم واللغة التركية مع بعض الالمام بعلم الحساب . ويبدو ان وراء هذا التساهل جملة من الاسباب من بينها حاجة الدولة الى الملاكات العسكرية من اهالي البلاد خاصة وان بغداد كانت مقراً للفيلق السادس ، فضلاً عن أفتقار الولايات العراقية الى المدارس الابتدائية الكافية لتخريج طلاب يلتحقون في هذه المدارس .

كانت مدة الدراسة في هذه المدارس ثلاث سنوات ، ثم اصبحت فيما بعد اربع سنوات(×) فضلاً عن صفين تمهديين(××) اطلق عليهما الاحتياط تم تخصيصها للطلاب الذين لايجيدون قراءة اللغة التركية .

قسمت الدروس التي يتلقاها الطالب في هذه المدارس الى قسمين :-

القسم الاول . المحاضرات النظرية . اذ يتلقى الطالب دروساً في التاريخ والجغرافية والدين والحساب وحسن الخط فضلاً عن دراسة اللغة العربية والتركية والفارسية .

في حين ركز . القسم الثاني . من الدراسة على التدريب العملي مع الاهتمام البالغ بالرياضة البدنية وهذه المدارس عسكرية صرفة ، حيث تولت قيادة الجيش السادس مهمة الاشراف الاداري على هذه المدارس ، وبالتالي شكل ضباط الجيش الغالبية من مدرسيها فضلاً عن المدرسين المدنيين ، فعلى سبيل المثال ورد في احد المصادر الرسمية ان جميع معلمي المدرسة الرشدية العسكرية في بغداد والبالغ عددهم (١١) مدرساً فضلاً عن مدير المدرسة هم من العسكرين . وارتفع عدد المدرسين العسكرين الى (٢٠) مدرساً سنة ١٩٠٧ .

وفضلاً عن المدرسين العراقيين ضم الملاك التدريسي لهذه المدارس عدداً من المدرسين الاتراك ، وفي اعقاب افتتاح دور المعلمين في عدد من الولايات العراقية ، تولى العراقيين معظم مهام التدريس .

اتسمت الدراسة في هذا النوع من المدارس بالانتظام . فضلاً عن كونها داخلية ومجانية . وعد هذا احد الاسباب الرئيسية في زيادة اقبال العراقيين على الالتحاق بهذه المدارس ، علاوة على ارتفاع نفقات التعليم في المدارس الرسمية من جهة وقلة هذه المدارس من جهة اخرى ، وبالتالي عدم قدرة هذه المدارس على استيعاب اعداد الطلبة ، فضلاً عن انخفاض المستوى المعاشي للاسرة العراقية ، كما كان العامل الاجتماعي والمتمثل بالمركز الاجتماعي الذي يحتله العسكري انذاك حافزاً للكثيرمن الطلبة على الالتحاق بهذه المدارس

تفاوتت اعداد الطلبة المقبولين في هذه المدارس تبعاً للدعم المالي المقدم لها ، وتبعاً لحاجة الدولة للعناصر العسكرية ففي الوقت الذي كانت فيه الخطط المركزية تشير الى احتياج كبير للضباط ، تتوسع عملية قبول الطلاب في هذه المدارس ، والعكس صحيح . فعلى سبيل المثال بلغ مجموع طلاب المدرسة الرشدية في بغداد (٥٦١) طالباً سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ثم ارتفع العدد إلى (٧٤٠) طالباً سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م ، وبسبب قلة الدعم المالي للمدرسة إنخفظ العدد الكلي للطلبة المقبولين في هذه المدرسة الى (٣٨٣) طالباً سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م ، انخفض العدد الى (١٠٦) طالب سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م ، ليرتفع العدد من جديد الى (١٣٨) طالباً سنة ١٩١٤ .

استمرت الدراسة في المدارس الرشدية العسكرية حتى الاحتلال البريطاني للعراق .

من ذاكرة العدسة

مختار مدينة الناصرية 1914

الخط الأول من اليمين إلى اليسار..١- الشرطي ٢- عبد الزهرة الملا عمران (مختار محلة السيف) ٣- حسين الحران (مختار محلة السويج) ٤- الحاكم السياسي ٥- شهاب أحمد (مختار محلة الجامع)
الخط الثاني من اليمين إلى اليسار ..١- حبيب زغير (مختار محلة الصابئة) ٧- محمد أفندي ٨- توفيق الحاج عذار (اسبكتور) ٩- داود سلمان (مفتش الكهرباء) ١٠- يوسف يحيى (مدير أوراق المتصرفية)
الخط الثالث من اليمين إلى اليسار ١١- محمود أفندي (فراش المحكمة) ١٢- فراش ١٣- فراش

الشيخ الشبيبي . .يطلب من الأب الكرملي مساعدته في تعلم اللغة (الفرنسية) . .التي أجادها فيما بعد

يقول الاديب المرحوم عبد الرزاق الهلالي كان المرحوم مزاحم الامين الباجه جي من السياسيين العراقيين المخضرمين وقد تعرفت عليه عندما اصبح رئيسا للوزارة في سنة ١٩٤٩ عندما كنت اعمل في دائرة التشريفات الملكية والذي اذكره عنه انه لاقاني في احد الايام في شارع الرشيد بعد ان اصدرت كتابي (الشاعر الثائر الشيخ محمد باقر الشبيبي) سنة ١٩٦٥ وبعد ان سلمت عليه قال لي الباجه جي: استاذ الهلالي اهنيك على كتابك عن الشبيبي فقد كان صديقي، وهناك حقيقة اود ان تعرفها قلت ماهي؟ قال الباجه جي ان الفضل في نظم قصيدته عن باريس يرجع لي حيث دعوته ذات يوم الى السينما فلماذا ذهبنا ورأى ما عرض عن مدينة باريس في السينما اعجب بها ايما اعجاب وقال لي اني سوف انظم قصيدة بها.. وبالفعل نظم قصيدة بعد ايام مطلعها (لأن قطنت اهلي العراق فان لي بباريس اصحاب اعز من الاهل) فلما سمعت منه ذلك قلت له: لو اعدت طبع كتابي ثانية فلسوف اذكر هذه الحقيقة هذا ماقاله لي المرحوم الباجه جي عن الشبيبي وباريس وقد بدا لي وانا ابحث في

محمد باقر الشبيبي

مراسلات الكرملي مع بعض ادباء العراق.
ان الشيخ محمد باقر الشبيبي (رحمه الله) كان قد سعى الى تعلم اللغة الفرنسية وهو في النجف الاشرف ورغب في معاونة الاب

الاب انستاس الكرملي

انستاس الكرملي من اجل ذلك وانتقل للقارئ صورة رسالته التي بعث بها الى الكرملي بهذا الخصوص وهي (سيدي الفاضل اخذت بطاقتكم الكريمة ومنها علمت صفاء مودتكم وصدق لهجتكم وقد شكرتكم لحسن ظنكم بمقالتي الاخيرة وسوف اشرع ان شاء الله في اكمال (البسة العوام في العراق) مبوبة ولولا اني مشغول في هذا العهد بتعلم حبيبتي (اللغة الفرنسية) لاتممت البحث سيدي لا ادري ما صنع الدهر بمقالتي الاخيرة عن فرنسا! اتوقع من سيدي اذا لم ينشرها في (لغة العرب) ان يعيدها الي مع الشكر الجزيل وساعني كثيرا عدم وجود كتاب (ميثور براتبك) عندكم فانه لايوجد بطرفنا ابدا عسى ان يكلف سيدي احد اصحابه للوقوف عليه ويكون عوضه كتاب قراءة ممتع جدا لاصحح به قراءتي.
كتاب (كرامير) الاول من تأليف (هنري لاريف) طبع باريس واذا كان لديكم الثاني والثالث منه فلا بأس ولكن حاجتي الفعلية الى الاول والى كتاب قراءة يا حبذا لو يسمح لي الاب بوعد صادق لاجله اغادر وطني (النجف الاشرف) لمدة شهرين لادرس اللغة الفرنسية فيكون له المنة علي ابد الدهر وان النجف الاشرف وان اوجد فيها من يعلمها الا ان بعض النجفيين ينكر علينا هذا العمل والحاصل ان في سبيل تعلمها في النجف الاشرف عقبات تصد الطالب عنها! ولهذا أمل ان اكون في بغداد وبضعة شهر سأفرغ فيها نفسي وامحضها لدراستها واطال الله حياتكم.
التوقيع محمد باقر الشبيبي
وقد تبين لي بما شاهدت من رسائله الى الكرملي فيما بعد انه قد تعلم اللغة الفرنسية فعلا ولكنه مع هذا لم يسافر الى باريس كما كان يتمنى!!.

اعداد: عبد الله الشيخ علي البهادلي

الخدمات الصحية في العراق

منذ العهد العثماني حتى عام 1941

الحالة الصحية في العراق 1869-1914

ترجع البدايات الأولى لاهتمام الدولة العثمانية بالخدمات الصحية إلى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، عندما صدر في هذه السنة نظام الكرنتينة (الحجر الصحي) ، الذي نص على تأسيس دوائر الحجر الصحي في الولايات العثمانية ، علاوة على إنشاء عدد من المحاجر الصحية عند المنافذ الحدودية ومدن العتبات المقدسة.

وفي سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م صدر (نظام الإدارة الصحية العمومية)، وهو أول نظام يتعلق بالصحة العامة ، حيث ألزمت المادة الأولى منه بلديات الولايات العثمانية بتعيين طبيب ومعاون له في حين حددت المادة الخامسة واجبات هذا الملاك الطبي بمعاينة مرضى البلدة مجاناً، على أن تتكفل البلدية بدفع رواتبهم من ميزانيتها .

واولى هذا النظام جانبا من اهتمامه لنظام الكرنتينة (الحجر الصحي) ، فعلى سبيل المثال ألزمت المادة السابعة منه مأموري دوائر الكرنتينة بوجوب إبلاغ الجهات الرسمية في حالة ظهور وباء ما .

وقبل التطرق إلى جهود السلطات العثمانية في إقامة المؤسسات الصحية في الولايات العراقية ، لابد من إعطاء لمحة سريعة عن الواقع الصحي المتردي الذي عاشته الولايات العراقية ، حيث أدت البيئة دوراً كبيراً في التأثير في المستوى الصحي فكلما كانت المدينة نظيفة قل انتشار الأمراض ، لكن الحقيقة شيء والواقع الفعلي شيء آخر ، إذ إتسمت الغالبية العظمى من المدن العراقية بقلة نظافتها ، ناهيك عن كثرة البرك والمستنقعات التي لم تبذل السلطات العثمانية أية جهود ملموسة في ردمها.

علاوة على إفتقار المدينة العراقية إلى نظام لإسالة المياه ، إذ كانت مياه الشرب تنقل على ظهور الحيوانات من الأنهار ومصادر المياه القريبة ، ومن الآبار الملوثة داخل البيوت .

كما كان لافتقار الولايات العراقية لنظام تصريف المياه اثر كبير في انتشار الجراثيم والامراض الزهرية ، إذ ان تخزين المياه القذرة مدة طويلة ، وعدم اهتمام الاهالي بتنظيفها بصورة مستمرة مرة كل شهر في الاقل ، أو استخدام المواد المطهرة سببت الروائح الكريهة التي افسد هواء الدور ، وفي بعض الاحيان تتسرب إلى مياه النهر مختلطة مع مياه الشرب ، ناقلة جميع الامراض السارية ، ولم يقتصر الامر على البيوت فقط بل تعداها إلى الاماكن العامة كالخانات والحمامات ، فضلاً عن المدابغ المنتشرة قرب الانهار حيث كانت ترمي فضلاتها فيها فكانت سبباً اضافياً في انتشار الكثير من الامراض ، ومنها التهاب المعدة والامعاء والديزانتري وغيرها من الامراض ، كما شكل وجود الحيوانات الداجنة

وما شاكلها في البيوت سببا اضافيا لانتشار كثير من الجراثيم والمكروبات التي تسبب الامراض . ومما زاد في انتشار الامراض كثرة المقاهي والمطاعم القذرة والمفتقدة إلى ابسط الشروط الصحية .

وقلما وجدنا من الولاة من يهتم بنظافة المدن والاطعمة والمأكولات وتعد مبادرة والي بغداد احمد توفيق باشا سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م احدى المبادرات الفريدة من نوعها ، عندما أمر القصابين واصحاب المأكولات بوضع ستر من الخام على موادهم للمحافظة عليها من الغبار والذباب .

ومن العوامل الاخرى التي أسهمت في تدهور الحالة الصحية تدني المستوى التعليمي ، وانعدام الوعي الصحي لدى الغالبية العظمى من السكان ، واذا كان ثمة من يراجع الطبيب فان ذلك لا يكون قبل استفحال المرض ، وبالتالي لا يتمكن الطبيب من شفائه لفوات الاوان .

ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على تفتيش الامراض السارية والوبائية وقوع العراق في مفترق الطرق فضلاً عن قربه من الهند مما جعله عرضه للامراض الوافدة التي كانت تنقل بواسطة القوافل التجارية وقوافل الزوار الاجانب . علاوة على جثث الموتى التي يتم نقلها من ايران وغيرها من البلاد الاسلامية لتدفن في النجف الاشرف وكثيرا ما كانت هذه الجنائز تبقى فترة من الزمن في إنتظار إنجاز المعاملات الرسمية لتأمين مرورها ، مما ترتب عليه الكثير من المحازير الخطيرة .

لم تكن في العراق وحتى ستينيات القرن التاسع عشر مستشفيات باستثناء المستشفى الوحيد في ولاية الموصل ، الذي يرقى تاريخ افتتاحه إلى سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م اما الاطباء فيندر ان يكون هناك اكثر من طبيب في مركز كل ولاية . لذلك اقتصرت ممارسة المهنة على بعض المشعوذين والدجالين وبعض المتطببين الذين لم تتجاوز معرفتهم الحقائق التي تلقوها شفاها ، إذ توسع بعضهم في معلوماته من خلال قراءته بعض الكتب القديمة ، اما بالنسبة للقرى والارياف فقد مارس المهنة اشخاص توارثوها عن آبائهم واجدادهم .

وامام هذه الاسباب ، لم يكن مستغربا انتشار الامراض الوبائية التي كانت تفتك بالسكان فتكاً ذريعا ، فعلى سبيل المثال تفشى وباء الكوليرا (الهواء الاصفر) في الاعوام ١٨٢٠ ، ١٨٣٠ ، ١٨٦٥ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٣ ، ١٩١٦ ، ١٩١٧ .

فيما تفشى الطاعون وبشكل وبائي في السنوات ١٧٨٣ ، ١٨٠٢ ، ١٨٣١ ، ١٨٦٧ ، ١٨٧٤ ، ١٨٧٥ ، ١٨٧٧ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ . ناهيك عن الامراض المعدية الاخرى ، كالجدري ، والتيفوئيد ، والدايزنتري ، اما الامراض الجلدية فانتشرت هي الاخرى خاصة بين البرد. ولم يكن امام السكان للوقاية من هذه الاوبئة سوى الهروب من المدن الموبوءة إلى اماكن اخرى خالية من المرض فعندما تفشى مرض الطاعون في بغداد سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م اضطر اهلها إلى ترك المدينة والاقامة في مخيمات في الصحراء وخارجها .

الخدمات الصحية العامة في العراق 1869-1941:-

يعود الفضل إلى والي الموصل محمد اينجة بيرقدار (١٨٣٥-١٨٤٣ م) في انشاء اول مستشفى رسمي في العراق وهو مستشفى "القشلة العسكرية" ، حيث كان الغرض الرئيسي من إنشائه تأمين الخدمة الصحية للفرقة (١٢) من الجيش العثماني الموجودة في الموصل ، وكان يدير المستشفى المذكور سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م عدد من اطباء الالوية وهم المقدم ديمتراكي ، والرائد عيسى والجراح اسماعيل افندي ، يساعدهم إثنان من الصيادلة ، ثم انضم للعمل معهم كل من الاطباء البنباش (المقدم) حسن بدري ومحمد أمين وبسبب ظروف الحرب العالمية الاولى والحاجة الماسة إلى مثل هذه الخدمات ، فقد ازدادت أهمية هذا المستشفى ابان تلك المرحلة .

اما اول مستشفى عام في العراق فقد انشأه في بغداد الوالي مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢م) الذي ادرك منذ الوهلة الاولى يتدهور الاوضاع الصحية ، فاحدث نقلة نوعية في الميدان الطبي حيث بدأت الحملة الاولى ضد التخلف والشعوذة والامراض المنتشرة بين الجميع آنذاك . ولما كانت خزينة الولاية لا تكفي لبناء المشروع المذكور ناشد مدحت باشا الاهالي بالتبرع لبناء المستشفى فانهالت عليه تبرعات الاغنياء والوجهاء... عند ذلك تم تشييد هذا المستشفى الذي جرى افتتاحه سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م وسمي بـ "مستشفى الغرباء" .

إحتوى هذا المستشفى على ٥٠ سريراً ، وضم عدداً من الاقسام منها قسم الامراض الباطنية وقسم الجراحة ، وقسم الامراض الزهرية ، فضلا عن جناح خاص للمساجين والمعتوهين والعواهر . فيما الحقت بالمستشفى شعبة بسيطة للاسعاف وكان العلاج في المستشفى مجانا . اما ادارة المستشفى فقد اسندت إلى دائرة البلدية الاولى . ويبدو ان هذا المستشفى لم يلق اقبالاً عند افتتاحه بسبب تفضيل الناس لاساليب العلاج التقليدية القديمة . كما تم تخصيص هذا المستشفى للغرباء لذلك كان معظم الملتجئين اليه من الفقراء والمتسولين، إذ وجد بعضهم فيه المكان المناسب ليقضوا فيه بقية حياتهم .

واجه المستشفى منذ بداية تأسيسه وحتى نهاية العهد العثماني ، صعوبات عديدة لعل في مقدمتها إفتقاره إلى الموارد الكافية لتأمين استمرارية عمله ، وأمام هذه المشكلة لجأت ادارة المستشفى إلى مناشدة الاهالي لبذل المساعدات المادية .

اما المشكلة الثانية التي واجهت عمل المستشفى فكانت الافتقار إلى الملاكات الطبية والادارية الكفوءة ، التي كانت احد اسباب اغلاق المستشفى لاكثر من مرة . حتى قيام والي بغداد قدري باشا ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م ، باعادة ترميم المستشفى وتأمين لوازمه من الادوية والمعدات الطبية ، الا ان الاهتمام لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما تعرض للاهمال ، لاسيما بعد نقل الوالي قدري باشا ، ثم انتهى امر المستشفى نهائيا سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م ، عندما نقلت محتوياته إلى المستشفى الذي انشأه نامق باشا –الذي سيأتي الحديث عنه لاحقا– في حين تم نقل عائدية بناية المستشفى إلى دائرة المعارف حيث اصبحت بناية للمدرسة الاعدادية الملكية .

يعود الفضل إلى نامق باشا الصغير (١٨٩٩-١٩٠٢م) في انشاء ثاني مستشفى في بغداد في جانب الرصافة . حيث جرى افتتاحه في ١٥ ذي الحجة ١٣١٨هـ/ ٥ نيسان ١٩٠١م واشتمل على عدة اقسام (باطنية ، جراحية ، عيون ، نسائية) ، وردهات خاصة للعمليات ، وقسم خاص للمجانين فضلاً عن صيدلية ملحقة به ومسجد ومطبخ وحديقة .

لقي المستشفى المذكور اهتماماً كبيراً من الوالي نامق باشا الذي كان يطمح إلى جعله افضل من غيره ، لذا جلب له الادوية والمطهرات والآلات الجراحية من اوربا . اما عن الهيئة الادارية للمستشفى فتألفت من مدير ووكيله وعاملين أخرين لمختلف الشؤون الادارية فضلاً عن مجموعة من الاطباء لمختلف الاختصاصات الموجودة في المستشفى امثال الدكتور نظام الدين للامراض الباطنية ، والجراح ذهني بك للامراض الجلدية ، وطبيب العيون سامي سليمان .وبغية ديمومة العمل في هذا المستشفى ، تم تشكيل لجنة مركزية اوكل اليها مهمة الاشراف على ادارة المستشفى ، ضمت في عضويتها طبيب دائرة البلدية الاولى ، ومعاون والي البصرة ، وعدد اخر من الاعضاء .

اما عن نفقات المستشفى فكانت ثلثاها تدفع من واردات البلدية ، اما الثلث الاخر فيجري استيفاؤه من الدائرة السنية وتحديداً من واردات التزام جسر الخر، وكانت الاصول المتبعة في ادخال المرضى إلى هذه المستشفى ان يحصل المريض على شهادة من البلدية تؤيد فقر حاله قبل دخوله المستشفى .هذا وقد بلغ عدد المراجعين في الشهر الاول من

من المهام التي اضطلعت بها هذه المستشفيات ايضا اجراء التلقيحات ضد الامراض المعدية إذ احتوت بعضها على شعب خاصة أوكل اليها القيام بهذه المهمة حيث عرفت هذه الشعب بشعب التلقيح "تلقيح خانة شعبة سي" وكمثال على ذلك شعبة التلقيحات التابعة لمستشفى الغرباء في البصرة ، وتألف ملاكها الوظيفي من مدير ، ووكيل مستحضر ، وكاتب وعدد من موظفي الخدمة . ثم اسندت هذه المهمة فيما بعد إلى دوائر الصحة التي دأبت على تنظيم حملات التلقيح ضد امراض الجدري والتيفوئيد ... وغيرها من الامراض . وعلى وجه الخصوص للموظفين وطلب المدارس الابتدائية والرشدية .ولم تقتصر حملات التلقيح ضد الامراض المعدية على مراكز الولايات بل تعدتها إلى العديد من الاقضية ، منها الديوانية ، سامراء ، مندلي ، كوت الامارة وغيرها من الاقضية الاخرى .

افتتاحه (٨٤) مريضا ، شفي منهم (٤٣) مريضاً ،مات (٤) مرضى وبقي (٣٧) مريضا تحت المعالجة.

وابان ولاية نجم الدين ملا (١٩٠٨-١٩٠٩م) تم استرداد بناية مستشفى الغرباء الذي شيده مدحت باشا من دائرة المعارف، حيث نقلت اليه محتويات المستشفى الذي كان نامق باشا قد أنشأه ، وقام هذا الوالي باعادة اعمار المستشفى عن طريق تبرعات

الاهالي ، وباسهام خاص منه ايضاً فيما تولت دائرة البلدية الثالثة مهمة الاشراف عليه ، الا ان المستشفى سرعان ما اخذ يتدهور بسبب افتقاره إلى الملاكات اللازمة إلى ان تولى الدكتور محمد كاني(×) ادارة المستشفى سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م الذي كانت له اسهاماته في الارتقاء بواقع المستشفى من خلال توسيعه لقاعاتها ، والاعتناء بتنظيفها ، والتوسع في خدماتها العلاجية . فعلى سبيل المثال ارتفعت اعداد العمليات الجراحية التي اجراها اطباء المستشفى المذكور ، إذ قام الدكتور كاني وحده باجراء ما لا يقل عن ٦٠ عملية جراحية خلال شهر ايلول سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م .ولاول مرة في تاريخ العراق الحديث اسندت وظائف التمريض إلى بعض الراهبات الفرنسيات حيث كان ذلك احد أسباب زيادة إقبال النساء على مراجعة المستشفى المذكور.

وقد استمر هذا المستشفى في تقديم خدماته العلاجية حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م ، حيث قام العثمانيون باخلائه ونقلوا كافة محتوياته وسجلاته واتلفوا بعضها ، اما الانكليز فقاموا بتحويله إلى مستشفى للامراض العقلية .

ويذكر وليس بدج الذي زار بغداد سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م وجود مستشفى اهلي عائد إلى احد الاشخاص البغداديين كان يعالج الناس مجانا .

وفي سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م صدر الامر من نظارة الداخلية العثمانية (وزارة الداخلية) لانشاء مستشفى اخر في ولاية بغداد حيث جرى إفتتاحه سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م سمي ب "مستشفى المجيدية" ، جرى تخصيصه لمنتسبي الجيش العثماني في العراق ، وكان يديره الاطباء العسكريون الملتحقون بالقطعات العسكرية العثمانية في العراق .

وقد جرت محاولات عديدة لتحسين المستشفى وتوسيعه منها المحاولة التي قام بها قائد الفيلق السادس (صدقي باشا) سنة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧م . أستمر المستشفى في تقديم خدماته العلاجية حتى الاحتلال البريطاني لبغداد عندما اتخذته القيادة العسكرية للجيش البريطاني مقرا لمستشفاها العسكري تحت اسم المستشفى العسكري البريطاني الثابت رقم (٢٣) .

وفي سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م جرى افتتاح مستشفى اهلي في بغداد شيدها احد اثرياء اليهود ويدعى مستشفى (مير الياهو الياس) حيث عُدّت من افخم المستشفيات وأكبرها آنذاك.

وهناك مستشفى (دار المعلمين) التي فتحت ابوابها للمراجعين في نيسان ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م ، ومستشفى (السبع ابكار) التي أخذت تستقبل جرحى الحرب العالمية الاولى بشكل يومي .

اما بالنسبة للاقضية التابعة لولاية بغداد ، فاشارت سالنامة بغداد لسنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ، إلى وجود مستشفى عسكري في قضاء الحلة ، تألف ملاكها الطبي من طبيب وجراح فضلاً عن ملاك وظيفي وعدد من موظفي الخدمة .

وكان هناك مستشفى اخر في قضاء كربلاء ، بطاقة استيعابية قدرها ٣٠ سريراً.

وأمام مطالب الاهالي بافتتاح مستشفى في قضاء النجف . صادق مجلس ولاية بغداد على تخصيص (١٥٠) الف ليرة من ميزانية الولاية لانشاء المستشفى المذكور . كما تقرر إنشاء مستشفيين في قضائي الكاظمية وسامراء على ان تستوفى تكاليف انشائهما من تبرعات الاهالي . الا اننا لم نعثر على اية اشارة تؤكد انشائهما هاتين المستشفيين .

اما بالنسبة لولاية البصرة فقد إفتقرت هذه الولاية وحتى العقد التاسع من القرن التاسع عشر إلى مثل هذه الخدمات ، ويبدو انه بناء على تعليمات وردت من استانبول ، إجتمع أعيان البصرة وكبار العسكريين والموظفين ، وتقرر جمع التبرعات لاقامة مستشفى تضم عشرين سريرا ودار للعجزة تكفي لايواء (٢٠) عاجزا . وخلال مدة ثلاثة اشهر ، جرى افتتاح المستشفى التي سميت بـ (مستشفى الغرباء) (غرباخسته خانه سي) ، وذلك في ٢٨ آب ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م في محلة عزالدين حيث بدأت بتقديم خدماتها للمراجعين من المرضى .

فضلاً عن ذلك ، كانت هناك مستشفى البحرية العسكري الواقعة على الضفة الشرقية لشط العرب في منطقة الصالحية ، التي اتخذت ايضاً مركزا للحجر الصحي .

اما فيما يخص ولاية الموصل ففضلاً عن المستشفى العسكري ، اشارت سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م إلى وجود مستشفى اخرى في قضاء دهوك . فيما أشارت سالنامة الموصل لسنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م إلى وجود مستشفى عسكري في كركوك . ومستشفى مدني في السليمانية . وفي سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م تبرعت بلدية الموصل بانشاء مستشفى الغرباء في المدينة ، حيث عين فيها عدد من الاطباء العراقيين منهم الدكتور داؤد الجلبي ، والدكتور فتح الله غنيمة ، والدكتور عبد الكريم قليان .

ومن المهام التي اضطلعت بها هذه المستشفيات ايضا اجراء التلقيحات ضد الامراض المعدية إذ احتوت بعضها على شعب خاصة أوكل اليها القيام بهذه المهمة حيث عرفت هذه الشعب بشعب التلقيح "تلقيح خانة شعبة سي" وكمثال على ذلك شعبة التلقيحات التابعة لمستشفى الغرباء في البصرة ، وتألف ملاكها الوظيفي من مدير ، ووكيل مستحضر ، وكاتب وعدد من موظفي الخدمة . ثم اسندت هذه المهمة فيما بعد إلى دوائر الصحة التي دأبت على تنظيم حملات التلقيح ضد امراض الجدري والتيفوئيد ... وغيرها من الامراض . وعلى وجه الخصوص للموظفين وطلب المدارس الابتدائية والرشدية .ولم تقتصر حملات التلقيح ضد الامراض المعدية على مراكز الولايات بل تعدتها إلى العديد من الاقضية ، منها الديوانية ، سامراء ، مندلي ، كوت الامارة وغيرها من الاقضية الاخرى .

اما بالنسبة للصيدليات ، فقد ذكرت المصادر وجود عدد من الصيدليات توزعت على الشكل الآتي :

٦ صيدليات في ولاية بغداد . وصيدلية رسمية واحدة في البصرة هي (صيدلية البلدية) فضلاً عن عدد من الصيدليات الاهلية وهي صيدلية كريكور ، وعزيز افندي وسميح شالوم . ففضلاً عن (٦) صيدليات أهلية في ولاية الموصل وهي صيدلية يوسف سنبل في سوق الشعارين ، وصيدلية عبد الله الحكيم في شهرسوق ،وصيدلية سليمان رمو في محلة الجولاق ، وصيدلية يوسف زبوني في سوق باب السراي ، وصيدلية نجيب قندلا مقابل السجن القديم . فيما اشارت سالنامة ولاية الموصل لسنة١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧ م إلى وجود صيدليتين في كركوك .

وكثيرا ما ارتبطت الصيدلية بوجود طبيب خاص يحدد وجوده في الصيدلية لتقديم العلاج للناس . وكان هناك تجار يقومون باستيراد الادوية من الخارج ، وكثيراً ما استغل باعة الادوية والعقاقير حاجة الناس المتزايدة لبضاعتهم ، فكانوا يبيعونهم الادوية التي انتهى امد صلاحيتها للاستعمال وباسعار عالية مما اجبر الكثير من الفقراء والمحتاجين على عدم شراء الدواء لضعف امكاناتهم المادية . في حين فضل الكثيرون الاعتماد على الاعشاب والوصفات الموجودة لدى العطارين .

اسند نظام الادارة العمومية الصادر سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م مهمة الاشراف على المؤسسات الصحية إلى الجهاز البلدي الذي ضم في عضويته طبيباً مختصاً يقوم بالاشراف على الشؤون الصحية في المناطق التابعة لادارة البلدية .

وفي سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م تشكلت أول ادارة صحية في العراق في ولاية بغداد ، حيث تألفت من مفتش صحي يعاونه طبيب البلدية ، وكاتب واحد . ومنذ هذا التاريخ انفصلت هذه الدائرة عن البلدية واصبحت دائرة مستقلة ، اعقبها تشكيل دوائر مماثلة في كل من البصرة ،والموصل واما مديرية صحة ولاية الموصل فتكونت وحسب ما ورد في سالنامة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م من المدير محمد نوري أفندي ، والكاتب صادق أفندي ، وكاتب الوفيات (توفيقخانه كاتبي) محمود أفندي ، وسرغارديان وهو رضا بك ، والطبيب حنا خياط ، و(٨) أطباء مناوبين ، ومضمد واحد ، وموظف خدمة .

كانت هناك دوائر صحية في عدد من الاقضية ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ذكرت سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ان دائرة صحة كربلاء ضمت ملاكاً وظيفياً تألف من مأمورين وموظفين أثنين . فيما تكونت دائرة صحة خانقين من طبيب وثلاثة اعضاء، ومعاين للجثث الواردة من ايران فضلاً عن عدد من الموظفين . كما اشارت السالنامات العثمانية إلى وجود هيئات صحية في عدد من الولايات العراقية ومنها ولاية بغداد التي تكون ملاكها الوظيفي من وكيل مفتش الصحة ، وعدد من الاطباء بضمنهم طبيب بيطري ، ومأمور اعاشة وقابلة . في حين تكونت الهيئة الصحية لولاية الموصل من مفتش للصحة وطبيب البلدية ، وطبيب بيطري ، ومأمور الاشغال والقابلة . اما عن الدور الذي اسند إلى هذه الهيئات فيبدو انها مارست نوعا من التفتيش الدوري للادارات الصحية الفرعية .

وتقتضي الضرورة هنا الاشارة إلى ان هناك اطرافاً اخرى اسهمت في تقديم الخدمات الصحية في العراق إلى جانب السلطات العثمانية ، ولاسيما الارساليات التبشيرية فقد كانت الخدمات الطبية في طليعة الخدمات التي قدمتها الارساليات التبشيرية التي وفدت الى العراق ، إذ ادرك اعضاء هذه الارساليات ... ان تحقيق مثل هذه الخدمات كفيل بتأمين الاحتكاك المباشر بالناس ، وبالتالي تأمين الوصول إلى الغايات التبشيرية لان الناس كانوا يومذاك ، بأمس الحاجة إلى مثل هذه الخدمات ، والى ذلك يشير احد اعضاء هذه البعثات بقوله "ان الطبيب المؤهل والجراح الممتاز يملكان ترخيصا يفتح امامهما الابواب المغلقة" .

ولعل ابرز تلك النشاطات نشاط الاباء الدومنيكان الذين قدموا خدماتهم الطبية لاهالي الموصل ، بعد مدة قصيرة من تأسيس وارساليتهم فيها سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م، إذ برز منهم طبيبان ايطاليان هما الاب فرنسيسكو توريانى " Turriani " والاب دومنيكو كوديليونشني "Codeleoncini" حيث استقبلهم الجليليون وافسحوا لهم مجالاً ودافعوا عنهم ، ولم تقتصر خدماتهم الطبية على مدينة الموصل فعندما مرض احد اقرباء حاكم العمادية ارسل امين باشا الجليلي (١٧٥٢-١٧٥٥م) الاب توريانى لمعالجته .

كما اشتهر من المبشرين الدومنيكان الاب جان باتيستابويتي (P.Gain batista Boetti) ، وكذلك الاب يوسف قوميانلي ، والاب اوغسطين مارجي (Marchi) الذي كانت له جهود عمرانية وطبية إذ قام بتشييد ديرمار يعقوب قرب دهوك سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م وفتح مستوصفا لمعالجة الاهالي في المناطق الجبلية الذي استمر في تقديم خدماته العلاجية حتى الحرب العالمية الثانية .

وفي أعقاب إنتقال قيادة البعثة التبشيرية الدومينيكية في الموصل من الايطاليين إلى الفرنسيين سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م برز عدد من الاطباء منهم الاب هياسانت بيسون Besson، والاب لويس ليون Lion والاب كالان Gallan والدكتور دنيس كوليه Gollet وعدد اخر من الاطباء .

وفي سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م مر بالموصل البارون ليجون Lijeune ممثل الامبراطور نابليون الثالث قادماً من بلاد فارس وفي اثناء رحلته اصيب بمرض ادى إلى وفاته بعد حين على أثر ذلك قامت والدته سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م بالتبرع بمقدار كبير من المال لانشاء مستشفى في الموصل سمي باسم "مستشفى ليجون" الذي جرى افتتاحه سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م . وامام افتقار ولاية الموصل إلى مثل هذه الخدمات ، لقي المستشفى اقبالا متزايدا من المراجعين إذ بلغ عدد المراجعين سنة١٢٩٤ هـ/١٨٧٧م (٣٠) الف مراجع ، ليرتفع العدد لسنة١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨م إلى (٣٨,٢٠٠) مريضاً ، وفي سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م بلغ عددهم ٥٢,٠٠٠ مريضاً . كما احتوى المستشفى ايضا على ردهة للمعوزين والمرضى الغرباء . كما قامت الارسالية نفسها بافتتاح عيادة طبية لمعالجة امراض العيون فضلا عن دار للمسنين.وفي سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م قامت جمعية التبشير الكنسية الانكليزية Church Missionary Society بافتتاح مستشفى خاص بها في بغداد . حيث تألف في بداية افتتاحه من عيادة خارجية ،واربعة اسرة تم تخصيصها للمرضى الذين هم بحاجة إلى اجراء عمليات جراحية وبمرور الوقت احرز هذا المستشفى تقدماً ملحوظاً في الخدمات العلاجية التي قدمها ، على الرغم من محاولات السلطات العثمانية اغلاق المستشفى المذكور ، إذ ارتفع عدد اسرة المستشفى حتى وصلت إلى ٣٢ سريرا . في الوقت الذي تألفت الهيئة المشرفة على ادارة المستشفى سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م من طبيبين تابعين للجمعية وصيدلي فضلا عن خادمين وسيدة تم تدريبهم على اعمال التمريض . وأمام النجاح الذي حققه هذا المستشفى، باشرت الارسالية التبشيرية المذكورة بتشييد مستشفى جديد في محلة السعدون ، الا ان هذا المستشفى سرعان ما توقف العمل به وبشكل نهائي بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى. وفي سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م قامت الارسالية ذاتها بافتتاح اول صيدلية انكليزية في بغداد.

عن كتاب الحياة والخدمات الاجتماعية في العراق تأليف نسرين عبد العزيز

قبل اكثر من سبعين عاماً:

الملك غازي توّج (الطويرجاوي) أميراً للغناء الريفي

علي ناصر الكناني

قبل اكثر من اربعين عاماً وبالتحديد في عام ١٩٧٠، رحل عنا اثر مرض عضال ألمّ به رائد من عمالقة الشعر الشعبي والغناء الريفي الاصيل وقراءة القصائد الحسينية.. المرحوم عبد الامير الطويرجاوي الذي عرف بامتلاكه موهبة قوة الاداء الصوتي في ترديد (الموالات والابوذيات) ذات الاطوار الغنائية الصعبة التي تقترب كثيراً من المقام (كالعياش والصبا والحجاز) مما أهلهَ في ان يحتل مكان الصدارة بين العديد من اقرانه من مطربي تلك الفترة إبان العشرينيات من القرن الماضي، ولينال فيما بعد عن جدارة واستحقاق لقب (أمير الغناء الريفي).. واليوم ونحن نستذكر جانباً من سيرة هذا الفنان وما تركه من إرث وعطاء فني زاخر في مجال الشعر والغناء، آثرنا ان نلتقي نجله المصور الفوتوغرافي عبد الحسين الطويرجاوي ليحدثنا عن بعض الجوانب المشرقة من حياة والده ومسيرته الفنية الطويلة في مجال الشعر والغناء فقال:

ولد والدي عبد الامير كاظم حمادي المعروف بالطويرجاوي عام (١٨٨٥) في مدينة طويريج (الهندية) التي تقع بين محافظتي كربلاء والحلة. وقد نشأ وترعرع منذ صباه في مجالس الادب والمعرفة التي كان يحضرها عدد من الشعراء البارزين منهم: الشاعر رضا الخطيب والشاعر الشيخ علي البازي وتتلمذ على ايديهم وخلال تلك الفترة كان يتولى مهمة الاذان في احد المساجد. الموجودة في المدينة فكانوا يسمونه بصاحب الصوت المجلجل (الحاد والعذب)!. ويضيف: وفي عام ١٩١٥ بدأ الغناء في بيوت (آل القزوين) في الهندية وبدأت شهرته تنتشر وذاع صيته بين الناس مما دفع شركات الاسطوانات الى استغلال موهبته الغنائية المتفردة وامكانيته العالية في ابتكار الاطوار بتسجيل اغنياته وقصائده الشعرية على الاسطوانات كان ذلك في عام ١٩٢١ مقابل مئة روبية للاسطوانة الواحدة ومن بين تلك الشركات (كما يقول ولده عبد الحسين): شركة (بيضافون وبيلفون وايدبو وشركة سوده الوطنية وهرمز الالمانية) ومن جملة ما غنّى انذاك (ونْ ياكلب) و(تدري إشعمل فركاك) وغيرهما الكثير من الاغنيات التي كانت من كلماته والحانه، التي أدّاها من بعده العديد من المطربين الذين من بينهم الهام المدفعي.

الطويرجاوي يغني في مقاهي بغداد

ومما يذكر ان الفنان عبد الامير الطويرجاوي كان قد التقى بعد رحيله الى بغداد بكبار المغنين المعروفين انذاك وممن ذاع وانتشر صيتهم امثال الملا عثمان الموصلي ونجم الشيخلي واحمد زيدان ورشيد القندرچي واخرين غيرهم وفي تلك المقاهي القديمة بدأ الطويرجاوي يصدح بصوته عبر حنجرته القوية بأطوار غنائية تميز واختص بها. ومن هذه المقاهي مقهى (المميز) التي كانت تقع في منطقة ساحة الشهداء حالياً ومقهى (البولبخية) في سوق الهرج ومقهى (الفضل) لمجيد كركر ومقهى (فضوة عرب) ومقهى (العوينة) ومقهى المطرب الراحل ناصر حكيم في منطقة علاوي الحلة. كما انه كان قد ادى بعض اغنياته في مقهى (التجار) بمحافظة البصرة.

الطويرجاوي والملك غازي

ومن طريف ما يذكر عن الفنان الراحل انه كان يختلي مع نفسه ليلاً بعد ان يتخذ مكاناً له على شاطئ نهر دجلة القريب من منطقة سكناه وبعد ان يخلد الناس الى النوم يطلق العنان لصوته الشجي بموالاته وابوذياته مما دفع احدى العوائل المعروفة لتقديم شكوى ضده عن طريق احد معارفهم في البلاط الملكي. فلما سمع بذلك الملك غازي أمر باحضار الطويرجاوي لمعرفة حقيقة الأمر ولكن بعد ان استمع الملك لصوته اعجب به واطلق عليه لقب (أمير الغناء الريفي) قائلاً له: كنا نتصور انك لاتملك صوتاً بهذه العذوبة والاحساس المرهف..!! وفي عام ١٩٣٦ تم افتتاح دار الاذاعة العراقية فكان الطويرجاوي من اوائل المبادرين في اداء الاغاني الوطنية والريفية حين كان البث فيها حياً وبصورة مباشرة لعدم وجود اجهزة للتسجيل في ذلك الوقت.

الطويرجاوي وفدعة شاعرة ثورة العشرين

ويروي لنا ولده عبد الحسين ايضاً موقفاً آخر مرّ بوالده حين التقته تلك المرأة العراقية التي شهدت لمواقفها الوطنية المشرفة تلك الاحداث المهمة التي جرت خلال ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ وهي شاعرة عرفت ايضاً بقوة صوتها حيث يضيف قائلاً:لقد قالت لوالدي هذه الشاعرة الكبيرة لنرى أينا اطول نفساً أنا ام انت فدعنا نتسابق انا أزغرد (اي أطلق هلهولة) وانت تقرأ الابوذية بنفس واحد دون توقف. فان غلبتني فسأمنحك هذه الاسارو الذهبية وهذا البيت الذي امتلكه. كان ذلك امام جمع من أهلها وعشيرتها. وبعد ان بدأ الاثنان بالأداء، كان الفوز من نصيب والدي ولكنه اعتذر عن تسلم الجائزة..!

الطويرجاوي ينجو من حكم بالاعدام

من المواقف الخطيرة التي مرّت بفناننا الراحل وكادت تودي بحياته، هي انه التقى به عام ١٩٤١ عدد من الضباط الأحرار المشاركين في ثورة مايس الوطنية وطلبوا منه ان ينظم الاشعار الحماسية والوطنية ويغنيها بصوته ليؤجج حماس الجماهير ويلهب مشاعرهم الوطنية ضد الاستعمار البريطاني. ولكن بعد فشل الثورة حكم عليه غيابياً بالاعدام. فلجأ الى مدينته طويريج ليتوارى فيها عن الانظار ولكن بعد توسط احدى الشخصيات المعروفة آنذاك. تم اعفاؤه من هذه العقوبة. مما دفعه فيما بعد إلى الاتجاه الى قراءة المواليد والقصائد الحسينية في المناسبات الدينية..وهنا سألت ولده عبد الحسين وأنا اهم بمغادرة الاستوديو الخاص به ممازحاً وهل غنّى الوالد في ليلة زواجه.؟ فرد عليّ قائلاً.. لقد فاتني أن أسأله عن ذلك.. فتعالت ضحكاتنا معاً..!!

واخيراً بقي ان نقول: نتمنى من الجهات الفنية والموسيقية ذات العلاقة ان تولي اهتمامها بشكل جاد لما بقي من هذا الأرث الرائع الذي تركه فنانونا الرواد ومن بينهم الشاعر والمطرب الكبير عبد الامير الطوريجاوي والمحافظة عليه من الاندثار والضياع قبل فوات الاوان.

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم التصحيح اللغوي : يونس الخطيب